



مأساة هزلية .

● أحياناً ننتظر النور الأخضر .

● فيض من خواطر

● وضاع تفاؤل ربيع العمر

● تسهيلات حركية لاستيراد الأفكار



نقاہة

حياة الإنسان بين يدي المولى القدير ، هو خالقها ومقدرها مصيرها ..
وهو يسخر من البشر من يحاولون شفاء المرضى ، وقد ينجحون .

وفي حالة أحمد صارت عمليات كثيرة تناولت أجزاء من جسمه ،
وطال الوقت على المعالجين وعلى المنتظرين ، أما هو فلم يحس شيئاً .

وقد كنا معه في غيبوته التي طالت أثناء إجراء العملية أو العمليات ،
ثم إلى غرفة إنعاش ثم إلى سريره حتى بدأ يتلمس شيئاً من الوعي الخفيف ،
مع بداية ظهور آلام طفيفة أراد جسمه أن يفصح عنها بعد الزوال التدرجي
لتأثير المخدر .

وفي اللحظة الأولى ظن أنه فقد ذلك الرجل الغامض ، ولكنه كان
وراءة بطربوشه الداكن وبوجهه غير واضح القسما . وأطل بصره من
النافذة ، والشمس باسمه وأشعة الفلك في كل الشراعة ترتفع ممتلئة بالرياح
وهي تهته .

قلت : صار إبرار علمي وعقلي وتكنولوجي عليك ، وعلى أيد عالمة
وجادة . قال : جميل أن يعود الواحد إلى وعيه بعد أن جال في الماضي
والحاضر والمستقبل : . . . هكذا نعرف عما يحدث في غيبوبة .

مأساة هزلية

وقد عاد أحمد إلى وعيه في كثير من الشيء ، وقال بعد أحاديث جانبية طوفت في موضوعات شتى ، قال : يا صديقي وزميل دراستي ، ما سوف أقوله أنت عالم به بعد دراستك بالداخل والخارج . كنت أحس في وقت مضى في داخلي معاني حريفة تفور في غضب ، وهذا في حد ذاته أول السلم للتطوير والتغيير . ولكنني أراك شديد الاهتمام بالقيم وبالإنسان الإداري وبالعلاقات الإنسانية ، وأنت تولى عملية الإدارة ودينامياتها اهتماماً كبيراً . والحق معك ، فما تقدمت الدول بدون جهاز إداري شديد التكامل والفاعلية . ويتم هذا أولاً بالتخلص من أساليب رتيبة روتينية تقتل سرعة العمل وتطحن الابتكارية ، وتضن على العمل إحساس الخوف الجبان ، فيكون تعثر ويصير المثل المعروف : ' لا تفعل شيئاً ، إذن فلن تخطئ ' ولن تحاسب ولن تساءل . أما أن تحاول سلوكاً عاقلاً منطقياً للصالح العام ، وفي جراءة صدق النية ، لا : حذار الباشكاتب لك بالمرصاد وربما تضار . وربما تحولت بعض المصالح الحكومية والقطاع العام إلى سلخانة تذبح فيها محاولات التخلص من الرتابة والروتين !! .

يحفظ قوم كثيرون اللوائح والقوانين ، بنصوصها لا بروحها ، وهذا الحفظ هو مؤهلهم الأول في دنيا العمل ، يُستكمل بالبتسامه الرضى من الباشكاتب أو رئيس القسم ، أو مساعد رئيس القسم ويحس الأخ أنه على الخط . وما دامت الأمور لا تحيد عن القوانين والإمضاءات في أماكنها ، وما أكثرها ، ثم ختم التسريبتوج كل هذا ، والابتسامات سارية فليذهب كل إلى بيته ، ويفكر فيما سياً كل وكيف يمضى عصره ومغربه ومساءه ، وربما أسهم باقتدار شديد في زيادة عدد السكان وصحته النفسية حسنة جداً . . . حتى يكون لابنه في عام ٢٠٠٠ فرصة أكبر لاتباع الروتين

وخاتم للنسر !!! هؤلاء قوم معهم قوة - محدودة - ولكنها قوة ،
يومهم كأسمهم كقدمهم وكل شئ هادئ :

التربية قوة مستولة . عندما يتولى إدارى منصباً كرئيس لمؤسسة أو
شركة أو منطقة تعليمية . . الخ ، يسعد الكرمى سعادة كبيرة ، فقد
صار له سلطان ، وهو لا يعلم أن بعض السلاطين ماتوا إما على أسرته
أو في حارات ضيقة ، بل إن بعض من ماتوا على أسرته كانت خناجر
في صدورهم أو كان سم هتك بأحشائهم وقلة ماتوا ميتة رهيم . ولا يحدث
هذا اليوم ، فقد صارت مدنية والقتل فيها له أساليب أخرى ، منها القتل
المعنوى وربما قتل الخناجر وصار الحصول على السم صعباً ، وأجهزة
الأمن - والله الحمد - قادرة على حسن التصي . إن القتل المعنوى أشد
وأنكى ، لأن المقتول يرى نفسه وهو يقتل بالتقسيط غير المريح .

نادى الإسلام بكل العزة بالشورى ، وتصبح القضايا المطروحة محل
نقاش ، لا كبير ولا صغير ؛ والكل سواسية . لكن عندما تصبح الإدارة
- عند البعض - جاهلاً يعطى صاحبها مجداً ، فهنا لن يكون تقدم
ولا ترقى ، بل مزيد من الانتكاسات الإدارية والتنفيذية . وربما يسعد
البعض سعادة كبيرة أنه أصبح قادراً على إصدار أوامر وقرارات وتاه في
نشوة هذه السلطة ، واستمر العيش في عسل بحرها وصار عليه أن يتأكد
من استمراره في سباحة هذا البحر . . وأنا أرى أن هذا بحر من عسل مر .
ولكى يستمر عليه ألا يغضب الرؤساء ، وإلا سيجوا العسل من البحر ورأى
ووجد نفسه على قاع جاف ، بل ربما فيه أشواك . لهذا فهو يسارع يسترضى
رئيسه ، والذي بدوره يسترضى رئيسه وتتحول المسائل في بعض الإدارات
إلى مسابقات في أعمال مظهرية ، لا جوهرية ولا تخدم الصالح العام ؛
وإنما تستجلب الرضى .

خذ هذا المثال : افتح جريدة يومية في الصباح ، ولوقوف عند صفحة الوفيات ، واقرأ عن وفاة قريب بعيد لرئيس مجلس إدارة ما . وقرأ كم نعيًا احتلت مساحات كثيرة . وعلى بعد بوصتين أو ثلاثة خبر وفاة ابن رئيس مجلس إدارة سابق ولا نعي ولا ذكر . . . ستقول أبلغ مما يمكن أن أقوله ، وتضرب كفًا على كف . . . ونحزن ، لكن لا نحزن كثيرًا فربما أنت فاعل كما فعله العاملون لرئيس مجلس إدارة شركة . . . تعمل فيها !! .

عندما تنتج التربية أفراداً في مواقع قياديه همهم الأول المزيد من صعود السلم ، والغاية تبرر الوسطة ، هنا نقول : هذه طامة مؤسفة . منذ سمعت أن موظفاً كبيراً استقال بإرادته لخلاف في الرأي مع رؤسائه ؟ لو قرأ البعض هذا الخبر في جريدة لقالوا : مغفل هذا الموظف !! يعني ، هل هو سيصلح الكون ؟ .

الإصلاح يتم بالأفراد الشجعان في الحق وفي الخير :

سمة الطماعي أنه يعمل لنفسه وذاته . ليس عيباً أن يكون عند الفرد طموح ، وهذا أمر طبيعي ، لكن له أسساً خلقية سليمة تبعده عن الكذب والطمع وتدير المؤامرات على الغير ، وتكوين جهات صغيرة (شال) : أعود للشورى ، إذ يحدث في بعض المجتمعات أن تزيف معاني الشورى (يسميها البعض الديمقراطية . . . في معنى ما) ، وتتحول معانيها النبيلة إلى شعارات براقية . . . وتحس أن الطبل أجوف إلا من زلف أصحاب المصالح الخاصة . . . وربما رغبة في استرضاء الغير تقفل الحقيقة العلمية والقول الصادق الأمين ، لهذا ترجع بعض المجتمعات القهقري ، وغيرها تقفز تقدماً ، بعض المجتمعات تتقدم إلى الوراء . وهذه مأساة هزلية أبطالها (الرجال) ، ومسرحتها (المجتمع) ، كتبها (التكالب) ، ألف موسيقاها (الانتهازي) ، وصمم مناظرها (النفاق) . أما المخرج فهو

(تلك القوى الأجنبية والمحلية عبر عشرات وعشرات من السنوات) . وكانت دائماً تبسم راضية في قناعة ، فالستار يرفع كل صباح ومساء ، والنجاح مستمر ؛ فالمسرحية ناجحة منذ مئات السنين بدأت منذ عام ١٥١٦ م . مرت أثناءها في حالات من الركود النسبي ، ولكنها كانت تعود إلى نجاحها وتنبه نقاد المسرح لها فأوسعوها في السنوات القلائل الماضية ضرباً وتجريحاً وما النتيجة ؟ .

* * *

ونحن في هدوء حجرة المستشفى المريحة ، والنيل يتدفق بعطائه ، وأشعة الشمس الحانية تنساب إلى الحجرة في محبة ، أسأل (أحمد) في كل التساؤل : لماذا هذا الاهتمام للغائب بالإدارة والإداريين ؟ وبالعلاقات الإنسانية ؟ .

وشئ من التفكير التأملی ، تم رد الكرة إلى نفس السؤال ، قلت : تعلمنا ونعلم أن نجاح أى مشروع بعد تحديد أهدافه وأغراضه والتخطيط له وبداية التنفيذ يتوقف على الفنين والإداريين ، والإمكانات المادية ، فيتبقى الجهاز الإدارى الذى ينظم ويشرف على العملية التنفيذية . وهنا يقع الخطأ الذى قد يفسد العمل الجاد المسهم المطور .

يحدثنا علم النفس عن السادية وجنون العظمة . وأرى هذه وذاك في بعض ما يجرى مما يفقد العمل جديته وعطاءه . وأرى ذاتية تنحى الموضوعية في إصدار قرارات سليمة ، ويصبح الأمر فوضى ولدتها إرهابات توهجية أطاحت بأنبال القيم الإدارية . إن مقولة الرئيس الإدارى أحكم وأعلم من رؤسياه أجهضت الكثير من المشروعات البناءة وصار الأمر تحقيقاً لأنانية لا يرتضها أى عرف أخلاقى :

ضعيف هذا الذى لا يعترف بخطأ وقع فيه ؛ بل هى شخصيته فى .

تكاملها تهتز ، وإن بان على السطح ناجحاً ؛ وتصور أن له شخصية قوية .
هي قوية في نظره هو ، وفي نظر الساعين إلى رضائه ليضمنوا استمرار
العطاء وأكل العيش .

ليس بهذا تتقدم المحتمات ، وليس بهذا يكون النجاح . وإنما يتطور
الأمر إلى - كما قلت أنت - تقدم إلى الوراثة . وهذا يحدث في حالات
كثيرة بين المثقفين ؛ بل من كبار المثقفين . أسى وللأسف .

يقول أحمد : كنت معي في غيبوتي ، وكان معي هذا الرجل الغامض ،
وأمسكت بإحساساتي وعشثها ، وقد انفتح قلبي وعقلي ، وصار شربط من
ذكريات من الماضي ، ولحمة عن مستقبل ، وبصير الأمر إلى تعقيد شديد يدهو
بالقوة إلى تفكير جاد في قضية التعليم ، ويدلى فرد بدلوه . . . وتتكاثر
الدلاء ، في ماء البعض تفاؤل ، وفي أخريات تشاؤم ، ولكن الماء موجود .
والجدل مفيد إذا كان تفكيراً وحواراً يدور ، ونرجو ألا يطول الحوار .
الأمر الهام أن هناك الأمر شوري ؛ والأحكام للصالح العام :

قلت : يا أخى أحمد سمعت والمعهد على الراوى ، أنه في مجتمع ما على
ظهر كوكب الأرض أنه صار قول من كبير أن المدرسة ذات الفصل الواحد
أمر رائع ، وكان هرج وهبص ، وتهافت سريع من المرؤسين ، وفيه علم
غير كثير : وقبل إن مسئولاً سيزور ، فجمعوا أطفالاً من صفوف مختلفة
رصوم رصاً في حجرة واحدة وأمامهم معلم يدري من التمثيلية القليل .
وكانت مأساة هزلية ، أرضت المسئولين . . . للأسف : ربما حدث هذا
في مجتمع متخلف ، لأنه متخلف .

أحيانا نتظر الضوء الأخضر

وحتى يكون تفكير مبنى على أصول وأسس . والمقصود هنا أن تفكر
تربوياً في موضوعية بعيدة عن حماس مبالغ فيه لأفكار ربما صلحت لوقت
مضى ، ولانصلح لوقتنا هذا .

وكننا جماعة نجلس مع أحمد ، وكل شيء هادىء حولنا وبدأنا نداعبه
فى حث للحديث . وإذا به يبادرنى سائلا عن كتاب لى ، وكان البعض قد قرأ
أطرافاً منه ، ولم يكن قد قرأه فوعدهته بنسخة .

قال أحمد تكلمت أنا كثيراً وبودى أن أستمع إليك خاصة
والحديث جار على صفحات الصحف عن تطوير التعليم ، وأقرأ عن لجان
واجتماعات ، واهتمام على مستوى الدولة :

قلت يسعدنى أن أتحديث ، وسوف أقرأ لكم جزءاً يسيراً جداً
عما كتبت :

* * *

نبادر فنسأل كيف يمكن للفلسفة أن تسهم إيجابياً فى تحسين التربية والتعليم
فى مجتمع ؟ والفرض قائم بأن تحسين التربية وتطويرها أمر أساسى فى التقدم .
الشكوى من انخفاض مستوى التعليم ، الآباء يقولون إن أبناءهم لا يتألقون قسطاً
من التعليم كذلك الذى نالوه أيام كانوا تلاميذ فى المدارس . الإجابة عن ذلك
السؤال يتطلب العديد من المقدمات .

أولاً - ما يحتاجه تطوير التعليم

- دراية كافية بتنظيم التعليم الحالى وسلمه ، وما يدور داخل المؤسسات
التعليمية .

- دراية كافية بالظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تعمل
المدارس فى إطارها وتحت تأثيرها .

- ماهية القوى التى تستطيع - فى حالة وجود اقتراحات للإصلاح -
أن تنفذ ما يقترح فى المدارس .

- فهم وضوح لدى المسؤولين والعاملين المخصصين عن ماهية التربية .
ووظيفتها في كل مرحلة تعليمية وفي كل بعد من أبعادها .

هذه المتطلبات الأربعة - بغض النظر عن ترتيبها من حيث الأهمية -
تلوح أنها بعيدة عن ميدان الفلسفة إذا استثنينا المطلب الرابع خاص بماهية
التربية ووظيفتها . وليس من المهم أن نظل نستمع إلى تراهاات الذين يدعون
أن الفلسفة لا صلة لها بالتربية ، بمعنى ما دخل الفلسفة بالتربية وهي تهم في
أبراج عاجية ، وهي بعيدة عن الواقع . فالمعروف أن للعلوم الطبيعية منافع
عملية ، فالعلم يعطينا القوة على التنبؤ بما سيحدث في المجال الطبيعي ، بل
نستطيع أن نتحكم في أمور طبيعية كثيرة . ولكن ما نفع الفلسفة ؟ .

تمدنا الفلسفة بالقوة لكي نستخدم بحكمة وحذر قوى التنبؤ والتحكم ،
فقد تستخدم الطاقة النووية من أجل السلام ، وقد تستخدم للتدمير والملاك ،
للفلسفة إذن تثير الطريق أمامنا للعمل المفيد الخير ، وكيف نستخدم قوانا
لتحقق أغراضنا .

ثانياً - ماهية المشكلات الأساسية للفلسفة التربوية

والسؤال هنا عن أهم المشكلات الأساسية التي تعالجها فلسفة التربية ، والتي
يمكن لهذه الفلسفة أن تلتق أعضاء عليها ، وبذلك نعطينا إمكانات أعرض
لتقييم مختلف جوانب المشكلة بحكمة ورزاقنة ، بعيداً عن النزق والانفعال .
وكيف أن هذا التقييم يفسح المجال للتطبيقات التربوية الحديثة ، أو لاقتراح
وسائل الإصلاح في النظام التعليمي .

من الأسئلة الفلسفية سؤال عن مصير الفرد وعن أهمية حياته على
الأرض ؟ هل السنوات التي يمضيها - وهي قليلة نسبياً - كافية ليأخذ من
الحياة ما يجب أن يأخذه ويرتوي ؟ أم هذه السنوات جزء من حياة الفرد

للشاملة الكاملة ، وأن هذه الفترة القصيرة - نسبياً - في حياته الكبرى ومع قصرها تحدد طبيعة فترة حياته الباقية ؟

هذا موضوع فلسفي ، ولكن إذا اعتقدت أن حياتك الدنيوية ستؤثر بما تعمله فيها على بقية حياتك الأخرى ، فإذا تفعل ؟ كيف تسلك في حياتك الدنيوية ؟ ماذا يجب أن تعرف لكي تسعد في حياتك بعد الحياة الدنيوية ؟ لاشك أن ما (يتعلمه) الفرد هنا في دنياه يجب أن يأخذ مجرى معيناً يختلف تماماً عن الموقف عندما لا تكون هناك مثل تلك الفلسفة .

ولكن موضوع ما بعد الموت ، والحياة الأخرى ، والبعث ، أصبحت اليوم مرتبطة بالإيمان أكثر من ارتباطها بالمعرفة . والجدل حولها غزير كثير ؛ والبعض يلتزم بالكتب السماوية والبعض يخلق الحجج المنطقية ، وقد يلجأ البعض إلى العلم فيفسرون بعض نتائجه تفسيراً يلائم موقفهم حتى يدعم . والجدل كما قلت كثير ، وليس هنا مجاله .

وبهنا - بدلاً من الخوض في تلك المعارك - أن نحدد أنفسنا بما يتصل بحياة الإنسان من المهد إلى اللحد ، من الميلاد إلى الموت . وبالقولتين اللتين منحناهما وهما الملاحظة والتفكير نستطيع أن نتخذ بعض المواقف الباحثة .

أول هذه المواقف التي تبحث في حياتنا يدور حول معنى « التربية » وما علاقة التربية بالتدريس والبت العقائدي والتدريب . موقف باحث آخر يدور حول حاجة الإنسان لتربية اصطناعية تضاف إلى التربية التي يشتقها من خبرته في الحياة . موقف باحث ثالث متعلق بطبيعة هذا الكائن المسمى « الإنسان » وهو الكائن الذي يرى . فكما أننا نتحدث عن أبعاد ثلاثة للشيء هي الطول والعرض والعمق فكذلك علينا أن نسأل ما هي أبعاد طبيعة الإنسان التي سوف تؤسس تربيته على بعد واحد أو أكثر منها . ولنبحث في هذه المواقف الباحثة الثلاثة .

(١) التربية والتدريس والبث

أن تربي educate في أصلها اللاتيني تعني أن تسحب من الداخل ، وما تسحبه من الداخل وتنميه لا يمكن أن يكون إلا قدرات لدى الإنسان ، وهذه القدرات تظل كامنة قائمة أو في طورها الجنيني إلى أن يحركها شيء فيوقظها ويغذيها ويتعهدا بالمران . بعض هذه القدرات والإمكانات الكامنة عند الإنسان خير وبعضها شرير . هذا الخير والشر بالنسبة للظروف البيئية التي يوجد فيها الإنسان في زمان ومكان ما ، الأمر نسبي . ليس غريباً أن نسمع عن مدرسة تربي النشالين ، أو بيئة تربي المنحرفين وحملة الرذائل . ولكن عندما نتكلم عن تربية نعني تنمية القدرات في اتجاه الخير ، تنمية الصالح منها ، وقد يكون هذا عملاً أصعب .

وتم التربية من خلال عمليات ثلاث هي عملية التدريس وعملية التدريب وعملية البث ، وفي العمليتين الأخيرتين يمضي المتعلم جانباً كبيراً من الوقت في تقليد ما لاحظته مضافاً إلى الاتصال اللغوي بين المعلم والمتعلمين . التدريس يعنى عملية تقديم المعرفة إلى العقل بحيث تأخذ معرفة الحقائق والعلاقات والقوانين والمبادئ . . مكاناً فيه . التدريب عملية إعطاء فرد المهارة لعمل بعض المنجزات العقلية أو الجسمية ، وفي التدريب لا يتطلب الأمر دائماً فهم الأسس والمبادئ التي يرتكز أو يعتمد عليها المنجز .

إلى جانب المعلومات والمهارات ، يتطلب الأمر أن نزرع في الشخص بعض المعتقدات أو العقائد المثبتة dogmas يترجمها البعض بالنسليات المثبتة . تختلف هذه عن تدريس المعرفة ، وهي تعمل على تشكيل السلوك والمزاج والإحساس عند فرد ما بحيث تعده للتوافق الكامل مع غيره من أصحاب تلك العقيدة . زرع dogmas يختلف عن التدريس ، فإن بث مذهب ديني أو سياسي أو اجتماعي يختلف عن التدريس عن هذا المذهب أو ذلك . ويعتمد

البث العقائدى على الإيحاء وهو يشتمل على صب معتقدات فى عقل السامع بطريقة أو أخرى . ولكن يشترط استبعاد إصدار الأحكام الناقدة عند السامع وبذلك يضمن الموحى التقبل الآلى من جانب الموحى إليه . فى حين أنه فى التدريس ينتظر من المعلم أن يعطى الأدلة المختلفة مبيئاً ما فيها من قوة وضعف متيحاً لتلاميذه فرص الأسئلة والتقد والتعديل .

البث العقائدى نفسياً يؤدى إلى « تحويل الفرد إلى » ، وليس « تزويد الفرد ببعض المعلومات عن » ، تحويل الفرد إلى الإطار الاجتماعى المفروض أن يتحول إليه . ويتألف هذا الإطار الاجتماعى من المعتقدات والعادات والولاءات والارتباطات الخاصة بالبيئة التى يعيش فيها أو سيعيش فيها .

(ب) حاجة الإنسان إلى التربية

لماذا يحتاج الإنسان إلى التربية ؟ فى رأى أن الإنسان أقل الحيوانات تزوداً بالآليات الغريزية التى بها يستطيع التعامل مع البيئة . كثير من الحيوانات لها فترة طفولة قصيرة جداً ، وبنموها تكتسب هذه الآليات ، وهى لا تتعلم كيف تتعامل مع بيئتها ، ولكن الآليات الغريزية ذاتها هى التى توجه سلوكها فى البيئة . على العكس نجد الإنسان ، له طفولة طويلة المدى ، يعتمد فيها على غيره . ولكن لدى الإنسان الطفل القدرات التى تمكنه - عند ما ينمو - من الاعتماد على نفسه فى معيشته فى البيئة أكثر من أى حيوان آخر . وهو يستطيع ذلك عن طريق تعلمه وخضوعه لتربيته ، لا مجرد نضج غرائزه . الإنسان أكثر الحيوانات مرونة وقابلية للتعلم ، وهو أكثرها احتياجاً للتعليم .

جانب من هذا التعليم يتم بطريقة آلية ، بمعنى أن الفرد الإنسان لا يخضع فى هذا الجانب إلى أساليب وأنظمة قصد بها أن تعلمه . فى مسار حياتنا نتعرض لخبرات لم نقصد التعرض لها ومن هذه الخبرات نتعلم ، لم نقصد أن نتعلم ، ولم يسع إنسان لتعليمنا ، ولكن مجرد حياتنا فى مجتمع ما يعرضنا لخبرات عديدة ، حتى ولو عزل الفرد نفسه ، أو وجد نفسه معزولاً ، فإن

احتكاكه بعناصر الطبيعة وتفاعله معها يكسبه خبرات ، وهو هنا يتعلم ، ويكتسب معلومات أو مهارات ، بل ينمي قدراته التي تتطلبها الظروف التي وجد الإنسان نفسه فيها .

الإنسان في بيئته - إذن - يتعرض لخبرات ويتعلم ، ولكنه لا يكتفى بهذا القدر من التعلم ، فهو يطلب المزيد ليكون تفاعله مع الأشياء والأحياء أكثر إثماراً . ثم قد يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يقوم بدور المعلم ؛ فالأب في مجتمعات ما يعلم أطفاله ، بل إن الجيل يعلم الجيل ، هذه العملية هي « محاولة من جانب الراشدين في المجتمع البشرى لتشكيل نمو الأجيال الصاعدة بما يتفق مع مثلها في الحياة » .

في المجتمعات البدائية - أو التي لم تؤثر فيها التقدّمات المدنية حتى بنصيب بسيط ، نجد تهيئاً للفردية ، بل لا يسمح للفردية بالازدهار . (التربية) في هذه المجتمعات تقوم أساساً على عدم الاعتراف بالفردية . . على العكس في المجتمعات المتقدمة حيث تعطى للفردية أهمية ، وينظر للفرد النامي على أنه كائن حي حر وليس مساراً في آلة ضخمة . مثل هذه المجتمعات ترى أن أفضل أشكال الحياة الجماعية تتدعم بتربية تهتم بالمناسط الاجتماعية كوسيلة أساسية لنمو أرقى مستويات الحياة الفردية أكثر من كونها وسيلة لإخضاع النمو الفردي لها .

وقد ألمحت إلى أن الإنسان يعلم نفسه ، كما يعلم غيره . وفي تعليم الإنسان نفسه عمل قد لا تستطيع الجماعات المعنية ، أو أن هذه الهيئات والجماعات لا ترى ضرورة لما يعلمه الفرد لنفسه !! . فالإنسان يلاحظ نفسه ، أمر لا يتيسر للحيوانات . وهو من أكثر الحيوانات تطلعاً إلى المرأة ، المرأة المحسوسة أو العقلية وهي التأمل . وكثيراً ما يجد الفرد في المرأة (بنوعها) ما لا يعجبه . الإنسان إذن حيوان ناقد ، قادر على أن ينقد نفسه ، وبذلك يستطيع أن

يحسن ويعدل نفسه أيضاً . وكما يقول نيتشه فالإنسان هو الحيوان الذى يحجل من نفسه دواماً . وهو كائن مثالى ، مريض صعب شفاؤه من المثالية ، غير راض عما حوله ، وعما فى نفسه ، وهو يحاول باستمرار التعديل والتحسين :

لماذا نربى ؟ الإجابة واضحة فيما يجده الإنسان عندما ينظر إلى مرآة نفسه ، وينظر إلى غيره يجد الجهل والرياء والنفاق والبله وأعنف المرض والغفلة والظلم والأنانية والبؤس والجبن والنذالة والكذب والغش . . . وغيرها . طفق من هذه السوءات يهدد سعادة الفرد والجماعة . لا بد إذن من تقليل كميات هذه السوءات إلى الحد الأدنى ، أو التخلص من بعضها أو غالبيتها ، فهى العوائق أمام علاقات بشرية صحية سليمة سعيدة . لتتحقق هذه العلاقات المقبولات لا بد من قص أجنحة هذه السوءات .

(ج) أبعاد طبيعة الإنسان

كثيرة تلك المحاولات التى حاولت تحديد طبيعة الانسان ، ماهية الإنسان . فى رأى أن الانسان يتميز عن الحيوان بقدرته على ملاحظة ذاته ونقدها . . . كما قال نيتشه إن الانسان هو حيوان صاحب الوجنات الحمراء ، فهى تتورد عندما يحجل . وقد وُصف الإنسان - فى رأى - بأنه الكائن صاحب العقل ولذلك سمي بالإنسان العاقل homo sapiens وإذا كانت ماهية الانسان العقل والتفكير فإن إحساساته وانفعالاته حوادث أو أعراض لعقله أو تفكيره . وفى رأى ثالث أن ماهية الإنسان فى إرادته ، فى عزمه ورغباته وأغراضه واشتياقاته ، وأن قواه المعرفية هى - كما يقول شوبنهاور - « ضوء أشعلته إرادته لينير له الطريق » . وفى رأى رابع أن الكائن البشرى لا يجب أن ينظر إليه على أنه فرد ، ولكنه عضو فى مجتمع . . . هو خلية فى جسم عضوى كبير ، وتشتق أهمية هذا الكائن (الواحد) من شىء خارج عنه .

ورأى ، فد يأخذ به الكثيرون ، أن القوى المعرفية للانسان ، وقدراته

الانفعالية ، دوافعه ، نزعاته ، قوة إرادته ، قوته الجسمية ، حاجته إلى عضوية الجماعة ، واستطاعته هذه العضوية . . ، كل هذه جوانب من طبيعة الإنسان ، أبعاد لهذه الطبيعة .

ماهية الإنسان ليست بسيطة ، تقال في كلمة واحدة أو عبارة قصيرة ، ولكنها تشتمل على تلك القوى في تلاحمها وتشابكها وتعقدها . هذه القوى توجد في كميات ودرجات مختلفة عند كل فرد ، وقد تبرز واحدة منها لتتسدد ، فقد تحتل منطقة النفوذ القوى المعرفية ، وتخضع لها بقية القوى . وأقول تخضع بمعنى أنها موجودة وتعمل وتؤثر في تشكيل حياة الفرد .

مهمة التربية ألا تتجاهل أياً من هذه القوى ، بل تنميتها جميعاً بمقادير متناسبة ، وتعمل على التكامل بينها فتنسج منها وحدة عضوية . دور شاق عسير على التربية أن تقوم به ظالماً اعترفاً بأن الانسان يجب أن يربي . وإذا اتفقنا على أبعاد طبيعة الإنسان فجدير بنا أن نقول شيئاً عن أبعاد تربيته ، وهي متوافقة و متمشية مع أبعاد طبيعته .

ثالثاً - أبعاد تربية الانسان

(١) التربية العقلية

أول ما يخطر إلى البال عند سماع كلمة تربية أو مدرسة أو معلم هو ما يرتبط بالجانب العقلي في العملية التربوية ، الأب يسأل ابنه عما تعلم اليوم في المدرسة ، لا يقصد إلا معرفة هل تعلم كيف يكتب ، كيف يحسب ؟ هذا البعد من أبعاد التربية مرتبط بالمعرفة والتفكير . وقد ساد في السنوات الأخيرة رأى قال إنه ليس المهم الكم الذي يحصل عليه الفرد المتعلم من المعرفة ، ولكن المهم أن يتعلم كيف يفكر ، وأن يعمى القدرة على الكشف العقلي المستقل . وفي رأى أن هذا شطط ومبالغة يمكن الصمغ عنهما إذا كان ذلك الموقف هجوماً على آخر يرى أن التربية العقلية تنحصر في الكم المتعرفى الذي يكتسبه الفرد المتعلم .

وقد يعنى لى القول بأنه فى أى عمر وفى أى مكان لا بد للفرد من حد أدنى من المعرفة ، ويفضل أن يزيد عن هذا الحد الأدنى. إن فقدان الفرد لهذا القدر من المعرفة يجعله كالمأثم فى الصحراء دون بوصلة تعدد له أى اتجاه يسلك . دون خريطة تنبئه أين هو . لا يدرى شيئاً عن الإمكانيات غير المرئية له بعينه المجرده ، لا يعلم إلا ما يراه قريباً منه ، وربما كان فى أفقر بقعة . الأمن المهم إذن أن يلم الفرد بقسط وافر من الكم المعرفى ، أو ما يمكن أن نطلق عليه خريطة المعرفة . هى معرفة متنوعة غنية فى اتساع أفقها ، وليس فى عمقها . أقصد الاتساع العريض لا التعمق الضيق . شىء عن كل شىء .

بالإضافة إلى شىء عن كل شىء ، فعلى الفرد أن يعرف كل ما يستطيع عن شىء ، التعمق فى معرفة شىء ما مهم كأهمية الاتساع العريض ، بل هذه هى سمة العصر . التخصص فى واحد من جوانب المعرفة ، هذه الجوانب تعد بالآلاف . مضى الوقت الذى يعرف فيه فردا ما ، مهما كان عبقرياً ، كل شىء ، هذا دليل قلة معرفته تقريباً بكل شىء .

لكن ليست التربية العقلية قاصرة على هذين النوعين من المعرفة ، إذ لا بد من تنمية القوى العقلية لدى الفرد ، كقوة الملاحظة الموضوعية الدقيقة ، وفى تنظيم ما يلاحظه الفرد ، فى فهم ما يلاحظه واستخراج حقائق ثم تجميعها وتبويبها والوصول إلى أحكام سليمة . وحرى بالفرد أن يعرف كيف يقرأ بذكاء ، كيف تكون قراءته ناقدة ، كيف يقيم ما يقرأ ويزن الأدلة فلا يندفع ولا يضل ، جدير بالفرد فى تربيته العقلية أن يكون قادراً على اكتشاف نقاط فيما يقرأ تحتاج إلى تفسير ، وهو هنا يسأل أسئلة ربما لم تسأل من قبل . وهنا يضاء له الضوء الأخضر .

إكتساب الفرد هذه « المهارات » العقلية يختلف عما يحدث عندما يكتسب بعض المعلومات التى ترد إليه من الغير أو يتقبلها كما هى من الكتب أو المطبوعات

عامة . وتنمى هذه القوى العقلية بالتدريب ، وهذا التدريب يتم في إطار البحث عن المعرفة . لا أقصد هنا من قريب أو بعيد أى تلميح أو تصريح بنظرية الملكات المرفوضة منذ عدة أجيال . عود إلى تدريب هذه القوى العقلية وحيث يطبق « التعليم بالعمل » عبارة للتعليم بالعمل تفسر خطأ على أنها تعنى أن التعليم يتم بأن يكتشف الفرد بنفسه الحقائق . وهذا عبث ، فمن السفه أن يمضى الفرد ساعات وأياماً وشهوراً ليكتشف حقيقة ما يمكنه أن يعرفها في دقيقة واحدة . وأمضى السابقون وقتاً طويلاً حتى اكتشفوها ، فما المانع أن يعرف الطفل أن الدجاجة ترقد على بيضها ثلاثة أسابيع مثلاً ، كحقيقة ، بدلا من مراقبة الدجاجة ترقد على بيضها ثلاثة أسابيع . ثم ماذا يفعل الطفل ليكتشف كروية الأرض ؟ هل يدور حولها أو يركب سفينة فضاء ليرى بعينه أن الأرض كروية ؟

أن تتعلم من الغير نعمة كبرى ، وإلا فإن على كل جيل أن يبدأ من جديد ، فتجرى البشرية وهي في مكانها . . . محلك سر . . . إذا كان على كل فرد أن يكتشف بنفسه حتى يصدق . . . أو حتى يتعلم فنوف يكون موقفه كوقوف ذلك العنيد في غياب الذي يستطيع أن بشرى رغبة الخبر بقرص ، ولكن إصراره الأحمق يدفعه إلى أن يزرع الأرض ثم يحصد ويطحن ويخبز لنفسه رغيفاً .

أين ؟ متى ؟ لماذا ؟ كيف ؟ . . . وغيرها تفتح لك طرق المعرفة ، هذه الأسئلة وغيرها تشكل مثالا لنوع الخدمة العملية التي يستطيع التفكير الفلسفي أن يقدمها حتى يزداد الضوء الأخضر لعاناً .

وكما وقفنا هذا الموقف من القول التربوي الشائع « التعليم بالعمل » فبالمثل يمكن أن نحلل وندرس ونقيم أقوالا شائعة ، نأخذها مسلمات ، أو نتشدد بها مستعرضين عضلاتنا العلمية . وقد تكون ضعيفة . . . خذ مثلا « انسجام الفرد مع بيئته » ، « الديمقراطية في التربية » ، « التربية من

أجل التكيف ، وغيرها مما هي في حاجة إلى الكثير من إعادة النظر فيها وتفسيرها إجرائياً .

(ب) التربية الجسمية

بغض النظر عن علاقة الجسم بالعقل ، فالذى لا شك فيه أن للفرد جسماً وأن هذا الجسم كعقله قابل للتربية . جسم الفرد البشرى في تشريحه وعضلاته أثر على وجه الأرض أكثر من جسم أى حيوان آخر . أن تربي الجسم كأن تكون صاحب حصان تدخل به سباقاً مثيراً ، أنت لك العقل والتفكير في إعداد و (تربية) الحصان لهذا السباق . في تربية الجسم يكون الحديث عن عادات صحية نافعة من شأنها أن تنشئ الجسم صحياً ، وتجعله لانقاً للعمل ، بل تعطيه القدرة على المرونة والتشكل لمجابهة متطلبات الحياة المتغيرة . ولا أقصد هنا تنمية عضلات وقدرات جسمية كالتى عهدناها في طرزان مثلاً أو أحد (الفتوات) القادر على إظلام حى في دقائق . أقول ليس هذا هو المقصود بالتربية الجسمية للإنسان المتمدين . التأكيد على الرياضة البدنية يهدف إلى تنمية القوى الجسمية في الطفولة بحيث تكون جاهزة للعمل وقتما يطلب منها ذلك . إلى جانب لاسترواح والترفيه عند الكبار في ممارستهم للنشاط الرياضى . في الرياضة إبقاء للجسم على شكل مقبول فيه جمال وصحة لا لأغراض الضرب والتحطيم .

(ج) التربية المهنية

كلمة جذيرة بالتسجيل عن التربية ، المهنية ، وليس في طبيعة الإنسان ما نقوم على تربيته مهنيًا ، ولكنها تنمية - على درجة عالية من الكفاءة - لقدرات الفرد على العمل في المهنة التى يعد لها . هذه القدرات قد تكون جسمية إذا رام الفرد العمل في مجال رياضى مثلاً يتطلب كفاءة جسمية معينة . وعلى اختلاف المهن وتنوعها الغزير يتوقف نوع التربية الصالحة لكل منها .

(د) تربية المهارة الاجتماعية

هناك تربية لازمة للفرد لكونه كائناً اجتماعياً ، أى لازمة له ليتعامل مع غيره من بنى البشر . ولا أدرى كيف نسمى هذه التربية ، هل هى تربية التعامل ؟ أم على وجه أشمل هى تنمية المهارة الاجتماعية ؟ هى تنمية قدرة يتسلح بها دائماً السياسيون ، ولكنها مفيدة لغيرهم . هى قدرة التعامل الناجح مع الغير كما هم ، تتقبل الواحد كما هو بصالحه وطلحه ، بخيره وشره ، وتتعامل معه وأنت مبتسم دائماً ، ولا تسعى مطلقاً لمناصبته العدا . وقد تكرهه فى أعماقك ، لكنك تتعاون معه والابتسام الحلوة دائماً تكسو وجهك . . . المهم أنك تتقبله كما هو دون محاولة ملحة من ناحيتك لتغييره . هذه مهارة اجتماعية . . . وأى مهارة !! .

لكن مواقف الحياة لا يمكن أن تنفع معها كلها هذه المهارة الاجتماعية ، فقد تضطر إلى أن تعارض أحياناً ، وتقف موقفاً ضد واحد من الناس ، وقد تنافس الغير أو تدخل فى صراع .

(هـ) تربية الإرادة

تربية الإرادة تعنى تنمية القدرة على عمل الأشياء التى يستطيع الواحد عملها ويرغب فى عملها . إنها التربية التى تجعل الفرد قادراً على التغلب على التراخى والكسل والتسوية . هى تربية تجعل الفرد مثابراً عاملاً لتحقيق هدفه ، شجاعاً فى الحزن ، ومستعداً لتقبل الآلام . بالاختصار هى تربية تترجم الأحلام إلى أعمال . وكم وضعنا آمالنا فى أفراد ولكنهم فشلوا فى الوصول إلى المستوى الذى قدرناه لهم ، قصرت عزيمتهم عن بلوغ مرادهم .

(و) التربية الجمالية

تتضمن هذه التربية فى معناها الواسع تنمية قدرة الفرد على التمييز للدقيق

فيما تتأثر به حواسه . . . الألوان ، الأشكال ، الروائح ، المذاق ،
والمسوعات . يمكن بهذه التربية فصل عوامل الاختلاف واكتشاف عوامل
الارتباط بين ما تدركه الحواس ، حساسية هذه الارتباطات هي الفنون
أو الذوق الفني .

تضم التربية الجمالية بمعناها الواسع أيضاً تنمية القدرات الفنية الكامنة
لدى الفرد . التعبير بالفن له ميادينه كما للتعبير باللغة كتابة أو شفاها ،
وإن كان التعبير بالفن في رأى البعض أكثر إثارة ومتعة ، ولذلك فهو
أكثر صعوبة . الصعوبة مع المتعة صفتان للتعبير الفني ، وقد لا نتعلم الفن
ثم نعبّر فنياً بروائع ، لكن قلة نادرة هي القادرة على ذلك . الصعوبة والمتعة
لما في الفن من ابتكار وإبداع وأصالة .

لا يوجد الفن فقط في معارض الرسم والنحت ، والتصوير ، وقاعات
الموسيقى ، والاستوديوهات . . . ولكن الفن والخبرة الفنية بين ظهرانينا
في كل مكان وكل لحظة . والفن قرين الإنسان عبر العصور وحيثما عاش ،
بل لقد صحبه إلى مقبرته . حتى (القلة) القناوى التي نشرب منها تزينت ،
حتى (الشبشب) و (القبقاب) تفننا في زخرفتهما ، حتى الفرشة على كعك
العبيد . . . أى شيء له نفع وله وظيفة ولا يمكن الاستغناء عنه دخله الفن
ليزينه ويجمله عند الفقير وعند الغنى ، عند الصغير ، وعند الكبير . . .
الفن في حياة كل فرد .

(ز) التربية الخلقية والدينية

ليس تقليداً من أهمية التربية الدينية والخلقية مجيئهما المتأخر هذا بعد الفن
والتربية المهنية والجسمية والعقلية وغيرها ، هذا أمر غير مقصود . وفي
رأى أن الدين أساس لا يمكن الاستغناء عنه للخلق ، وثمة علاقة وطيدة
ترتبط الأخلاق بالدين . ما الأخلاق وما الدين ؟ يقال إن الناس ثلاث

طبقات - وهذا رأى Plotinus : طبقة توصف بأنها حيوانات وسط آدميين :
وطبقة توصف بأنها آدميون وسط حيوانات . وطبقة توصف بأنها ملائكة
وسط آدميين . وقد نقسم الناس إلى أربع طبقات بدلا من ثلاث ، أحطها
وأدناها في الدرك الأسفل هم الشريرون وهم الذين يأتون الشر لا ليجنوا
منفعة من ورائه ولكن من أجل اللذة التي يتمتعون بها وهم يمارسون
الشر ، حتى لو كلفهم هذا ثمناً وتعباً ونصباً . الشر من أجل لذة الاستمتاع به .
وقد يكون من هذه الطبقة جماعة الساديين الذين يتلذذون من تعذيب الغير ،
وجماعة المخربين . هل وقفت أمام موظف ، لك طلب عنده ويستطيع إنجازه
في خمس دقائق ونكته يقول لك تعال غداً ، وفي الغد يطالبك بالهجيء في
غد الغد وهكذا يستعذب وقوفك ورجاءك ومشاورك !!

فوق هذه الطبقة نجد طبقة الأنانيين . والأناني هو الشخص الذي يهتم
فقط بمصلحته ويسعى إليها ولو على حساب الغير . . . هو فقط . لا شيء
يهمه إلا أن ينفذ طلبه وليأت الطوفان على غيره . وهو لا يعمل عامداً على
الإضرار بالغير أو نفعهم ، ولكنه على أتم الاستعداد للإضرار بالغير أو
حتى نفعهم إذا حقق هذا خيراً له . . . الأناني دائماً لا يهتم ما يجتق بالغير
طالما أنه بمنأى عن الضرر .

فوق هذه الطبقة نجد طبقة الأخلاقيين حملة لواء الحق والفضيلة عامة .
الأخلاقي رجل عدول ، يعطي ما لقيصر لقيصر ، يأخذ ماله ويعطي ما عليه ،
نزيه ، أمين ، حريص هو ذلك الأخلاقي على تنفيذ تعهداته والتزاماته ؛ كما
يحرص أن يسلك غيره نفس ما يسلك ، ولكنه لا يجد ضرورة في أن يفعل
أكثر مما يتطلبه الواجب والالتزامات . فلسفته أن يؤدي ما عليه ويأخذ ماله
في عدالة وبغير جور .

فوق هذه الطبقة نجد طبقة تتكون من جماعة من الذين أعطوا الغير

أكثر مما توقعوا ، أكثر مما تطلبته العدالة . رجل يجد سعادته القصوى فيها يعطيه من سعادة للغير ، هناؤه في هناء الغير ، راحته في راحة الغير . هو على طرف النقيض من الشرير . رجلنا هذا غيرى أى عكس أنانى ، يعطى من نفسه لغيره :

هذا البعد من التربية ، هل يمكن أن نسميه تربية القلب ؟ هل هذا ما نادى به الأنبياء والقديسون وأولياء الله الطاهرون ؟ هل هذا ما حاولوه وأرادوا للدنيا أن تنعم به ، صفاء ونقاء وطهارة القلب من الشوائب والحقد والشر والضغائن والحسد والتميمة والخداع . . . غسل القلب وتنقيته من الشر حتى يكون ناصعاً مملوءاً بالحب ؟ هل أرادوا أخوة الإنسان . . . أى إنسان في أى مكان ؟ وزمان ؟

و الخلق القويم لا ينادى بالشر بدلا من الخير ، ولا بالكرهية بدلا من الحب ، ولا بالحرب بدلا من السلم ، ولا بالظلم بدلا من العدل

ثم أذكر أن الفرد يحس حسبا يفعل ، كلما فعلت الخير أحسست بالخير ، كلما أحببت وتعاطفت وعاونت زاد إحساسك بهذا الخير . . . جزاء الفضيلة في إتيانها . . . وكلما أكثرت من الفضائل زاد إحساسك بما تضيفه من سعادة على الغير ، حتى ولو كانت وراء هذه الأفعال رغبات شخصية كتطلعك وأملك في جنة الله .

* * *

وصار لنا شىء وشىء من الجدل العلمى فى محاولات لمزيد من التوضيح دون تجريح واشترك أحمد قليلا فى المناقشة ، وكنت أحس به فى لحظات متباعدة يتألم جسمياً ، لكنه كان يرفض أن نذهب حتى جاءته عائلته وأترك أحمد لهم .

فريضا من خواطر

للمرة الأولى أرى أحمد يضحك بكل جسمه حسباً تسمح عظامه المكسرة ، وسألت عن السبب فإذا بها هذه الرسوم (الكاريكاتورية) في الصحف اليومية والتعليقات الساخرة من الدخول عند بعض الأفراد بعد أن حدث في مصر ما أحدثه سليم الأول منذ أكثر من أربعة قرون ونصف قرن . : أيضاً . فقد أصبح العامل الماهر نادر الوجود ، ودخل الحرف من يعلمون عنها القليل .

كيف يمكن معالجة هذه المعادلة الصعبة ؟

أى كيف يمكن أن نوفق بين كسب مادي كبير جداً ، ولكن أصحابه من الحرفيين لا يحملون مؤهلات ، وربما متوسطة في أحسن الظروف ، وبين هذا الروتق الاجتماعى الذى يجعل الأب والأم والإبنة يرفضون خطياً يكسب المئات من الجنيهات لكنه لا يحمل شهادات ؟ =

ثم خطأ ما انحدر إلينا عبر عصور طويلة ، وتواصل فينا وصار يوجهنا ، حتى اندفعت ألوف يحملون مؤهلات عليا إلى دول أخرى يعملون في أى شئ ولكنهم يكسبون الألوف ، وقد صرفت عليهم الدولة الألوف ، ولم يردوا لها جنيهاً واحداً . وهم ربما سعداء ، وربما إدارات القوى العاملة سعيدة أيضاً ثم تريد كل محافظة أن يكون بها جامعة !! .

* * *

التنافس الشريف خلق كريم ، أما التكاثر الجشع فهو آفة اجتماعية : التنافس البناء سمة مطلوبة في المجتمع وفيها عزة ، وهو محاولة يثبت بها الفرد بأجاده وقدراته العلمية أنه قادر ، أما التكاثر فهو عمل يزيغ التنافس ، سلوك لونه ميكيافيللى وهنا تهتز الانجازات النبيلة ، وقد يدمر

(م - ٨ طفل غائب)

التكالب نفسه وغيره . وقد ينجح بعض المتكالبين ، كما ينجح بعض المزيفين .

ما يؤلم يا أخى أن يبلى ميدان التربية كغيره من الميادين بقلة من هؤلاء ، والمفروض أنهم قدوة حسنة تحتذى ، لكنها ذابت أو طارت . ربما لو أن هناك تعاوناً مثمراً لكان سبيل الإصلاح التربوى أكثر يسراً . التعاون موصل جيد للتقدم ، أما التكالب فهو موصل سئ ، بل هو لا يوصل أبداً للتقدم . لأن التقدم يرتبط بنجر الجميع ، أما التكالب فيرتبط بمصلحة فرد ما أو مجموعة قليلة جداً يمثلون هيئة المنتفعين لذلك فنكاد لا نتحرك إلا بأبطأ من السلحفاة في زمن الاندفاع الصاروخى سمها صرخة ألم إن شئت . إذ تربوياً هناك ضعف ، وحضارياً هناك شبه تجمد إلا في بعض الأنشطة .

الطفل الغاضب يا أخى غضب طفلاً ويافعاً ورجلاً ، وقد أخذه الغضب فى قسوة ، إذ تطلع إلى المجتمع وقد خذله بمن فيه ولا أقول بما فيه . إذ ما حدث كان غير ما كان يجب أن يحدث ، ولا أريد أن أنبش الماضى ، فقد فعلت ، ولكن أتصور أموراً تجرى حتى اليوم تنبئ بمجادة أن أطفال مصر ليسوا سواسية فيما يقدم لهم من تربية وتعليم . إذ نال بعضهم - وهم قلة قليلة جداً - الكثير ، وحجب عن الغالبية العظمى ما يجب أن تناله

على الورق وأمام المحافل الدولية هناك تكافؤ للفرص وديموقراطية فى التعليم ، وربما الحوادث غير ذلك . هذه الغالبية تهرع خارجة من المدارس بعد ثلاث أو أربع ساعات من (تعليم !!) ، وهم يطيرون فرحاً وقد غطوا الطريق بأعدادهم الهائلة ، يضحكون اليوم لأنهم فلتوا من هذا السجن حتى ولو كان السجن فناء لطيفة فى مستقبل العمر تفكر أولاً فى عريس وثامناً فى تدريس وليس فى هذا القول تعميم فبعضهن مخلصات أمينات ، ولكنهن قلة ، وربما حق معهن .

الأمر الهام هنا أن كثرة في المجتمع أصبحت لا تحترم المدرسة ولا من فيها ولا مافيا ، وقلة سعدت وتسعد بعقلها أو بالإمكانات المادية أو بهذا وذاك ، وهذه تريد مجتمعا منضبطاً ، ولكن ما تفعله الكثرة التي غضبت لأنها لم تنل تعليماً سليماً انعكس على المجتمع وصارت تتحدى قوانينه ويهملها جداً أن تكسر هذه القواعد والقوانين . هنا غضبت القلة التي صارت في حالة اغتراب .

لكي نضع بعض النقاط فوق بعض الحروف . قف في محطة حافلة (أوتوبيس) وراقب ما يحدث عندما يأتي واعجب هذا الاندفاع التكالبي في غير هواة ولا راحة برجل مسن ولا بامرأة تحمل في داخلها مواطناً سوف يأتي ، وفي كل يد مواطناً أتى فعلاً أنا وأنا فقط . وتسود شريعة الغاب ، بل إن هذه السيارة الضخمة تنفذ هذه الشريعة في تعاملها مع الشارع بما فيه من مشاة وسيارات صغيرة .

نعم ، التربية مسئولة ومسئولة .

ولكن نعود - يا أخي - ونسمع عن الاعتمادات المالية واقتصاد الحرب والانفجار السكاني . وكل هذا جميل ومعقول ومقبول . لكن هل نترك الأمور على ما هي عليه ؟ وقد خرج الأطفال من مدرستهم الابتدائية إلى عرض الطريق

يا أخي : عفوك فإن هذه الحبوب المهدئة وأحياناً المنومة قد تأسين ما سبق ذكره ، ولا بد لي منها ، هكذا قال الأطباء ، وهم يدرون ماذا يقولون ، وعلى الطاعة ، فإذا صار تكرار فهو يعبر عن صدق إحساس داخلي عندي ، وأرجو ألا يضايقك ويمكنك - في شرك - أن تقول « قديمة » أقصد تلك الحكاية !! .

أقول : يخرج الأطفال إلى عرض الشارع بعد أن رمتهم المدرسة إليه وسعدت بتخلصها منهم ، كما فرحوا هم أيضاً ، وقد ضج المدرسون

والمدرسات ، وكذلك ضج الأطفال للذين سرعان ما ينسون ما تعلموه إلا قلة وراءها من أولياء أمور ناضجين يحاولون تثبيت أطراف مما قد تعلمه أطفالهم .

ولا تحاول أن تقنعني أن تعليماً يحدث في مدارسنا الابتدائية الحكومية ، إلا في القليل ، إذ قد انكمش وتقلص اليوم المدرسي ، والطفل في زنقة ، مع خمسين آخرين ، وقلة من الذين يدرسون لهم سعادة بعملهم ، ناهيك عن المقاعد والسبورات ودورات المياه ... الخ .

عند ما وحدث مرحلة التعليم الأولى بدلا من ثنائية أولى وابتدائي ، كنا نرجو أن ترتفع المدارس الأولية إلى مستوى المدارس الابتدائية : لكن الأمانى تحطمت وتحولت المدارس الابتدائية إلى مدارس أولية بما فيها من امكانيات قليلة ، بل ازدادت قلة وضعفاً مادياً وبشرياً . وأقرأ عن محاولات جادة للإصلاح والتطوير . . . ونرجو لها كل التوفيق ، فهذه المرحلة ركيزة قوية لما بعدها من مراحل .

من مائة طفل دخلوا الصف الأول الابتدائي يتخرج من الصف السادس عدد ويتسرب عدد ويرسب عدد والأرقام التي تذكر تدور حول بعضها استفسارات وتساؤلات . وبعض من ينجحون يرتدون إلى الأمية وقد نسوا ما تعلموه . وهذا موقف مذهل محير مثير ومنذر بمخطر كبير : وهذه قضية نتحدث فيها في وقت آخر . لكن ما يؤلم حقاً ما ل هؤلاء المتسربين والراسبين . إذ المفروض أن المدرسة الابتدائية - وهي مرحلة الإلزام - وربما التعليم الأساسي فيما بعد ، أن تحاول تهيئة أبنائها للمواطنة ، ولكن الأمر كما ترى . والمجتمع يتطلب من أفراده وعيا معينا بحقوقهم وواجباتهم ، وأن تكون لديهم اتجاهات معينة نحو أنفسهم ونحو غيرهم . ونحو تراب بلدهم . يريد المجتمع أفرادا قد تساحوا بقيم أيمانية وجمالية يجعلهم يتحملون بقدرة مسئولياتهم ، حتى لا يكون هذا المنشاز الحادث والذي يجعل أفرادا يتصرفون ما شاء لهم الهوى .

وتصبح مآذن المساجد وأجراس الكنائس ، والشوارع قنطرة بما فيها وفي الألفاظ التي نسمعها من بعض روادها، والتاجر يفتش ، ومصليتك في إدارة ما لا بد أن تدفع حتى نمشي الأمور ، وحب الناس لبعضهم أصبح أسطورة . مأساة كبيرة تحتاج إلى سنوات حتى يعاد البناء الأخلاقي كما يجب أن يعاد . وحتى تعود أخلاقيات القرية المصرية كما عهدناها، وتسرى في القرى والمدن حتى تصبح الأسرة الكبيرة ممتاسكة في حب وتعاون . ولتأمل في مضاعفة حركات الإصلاح الحارية الآن ، بل وبجدية وجهد أكثر : وليحب الواحد منا لأخيه ما يجب لنفسه .

الحب كلمة جميلة أرادها الله لنا، حب للخير وحب للجمال وحب للحق، وفوق كل هذا حب صادق للقيم الإيمانية . ولن يقف الأمر عند حد أن نحب، ولكن ليتجاوز الأمر إلى سلوك . وإذا كانت النيات صادقة فالعمل خير وجميل . هل يمكن أن يكون هذا الهدف الأساسي للتعليم الإلزامي أو رسمه الأساسي ؟

هذا هدف نبيل تنسج حوله خيوط المناهج بما يلدور داخل حجرات الدراسة وخارجها ، إن كان في داخلها شيء هام ، وأشك أن في خارجها شيئاً ما . ربما تحول أمر الحب إلى هذه الأنغام الحائلة عن حب أول نظرة من فتى لفتاة ، واستغلت الكلمة النبيلة من شعراء وكتّاب أغان لترضى مراقبين ومراقبات ، وربما سذج في أواخر خريف العمر . وربما تدنست الكلمة عند البعض .

وصار حب للمال إلى الحد الذي فاق التصور ، هو حب أطاح بالقيم ، وأصبح عاطفة سائدة تسيطر على تفكير وانجاعات صاحبه ، وبدلاً من أن يكون السيد أصبح الأسير والخدم . يقول فلان إنني أحب الحق والعدل ، لكن إذا تعارضت عملية هادلة مع مصلحته هو ، تبخر هذا الحب . وليس هناك حب لأنك يا أخى أخذت رغبتي وعضدت كفتي .

إذا ارتبط الحب بمصاحبة ، وإذا كانت ركائز الحب هي المصالح

الشخصية المادية فقل على الأرض السلام ... ودنيا عجب ، أيضا ... ودنية
آخر زمان .

يا أخى : زرع الاتجاهات الحلقيه السليمه يجب أن يبدأ من بواكير الطفولة
حيث يكون الطفل غضا متقبلا . قد أقبل بتحفظ شديد قول : إن التعلم فى
الصغر كالنقش على الحجر . هذا إذا تم عن قناعة من الطفل وقذوة حسنة
أمامه . وقلة من البيوت قادرة على هذا . وندرة من المدارس الابتدائية تفكر
فى هذا .

قلت : والله يا أحمد إننى أسعد عندما أسمع كلمة طيبة من بائع فى محل
قطاع عام وأروى القصة لزملائى وأصدقائى كأنما صار الأمر بعبداً عن القاعة.
وكان استثناء . ونشف ريق المسئولين ، ولكن كانت هناك أذن من طين
وأذن من عجين . ربما عانى هذا المجتمع المصرى الكثير وخاض حروبا
قتلت عشرات الألوف من أبنائه وأوصلت اقتصاده إلى حافة الهاوية وقتر فى
الخدمات ليشتري الدبابات والطائرات ، وواحدة منها كافية لبناء عدد من
المدارس والمستشفيات ، وكانت تضحيات بشرية ومادية فوق تحمل بلد ليس
غنيا . ولكن هذا شرف وواجب ، وقد صار وقد حدث .

وربطنا الأحزمة على البطون ، وغيرنا أعطى القليل من العمل والكثير
جدا من الشعارات والأقوال .

ومع ذلك ، ومع كل هذا فكان يجب أن تكون للتربية أدوار أشد
وأحسن ، كان يجب عليها أن تتخطى كل هذا بتأكيد الصلابة الأخلاقية
والعلمية حتى تعطى العالم مثالا رائعا للكيفية التى تستطيع بها المدرسة أن
تقود المجتمع وتسانده وتقوى ما يحققه من انتصارات . كيف ؟ هذا
حديث آخر

ما ضابقتى ويضابقتى يا صديقى العزيز هذا الكذب الذى استشرى فى
كثير من المجالات . والكذب ملجأ سهل للخروج من مأزق . وقد بلغ حداً

في انتشاره أن أصبح عند البعض القاعدة ، وأصبح الصدق استثناء ، وهو موجود عند الغنى والفقير ، والصغير والكبير ، وعند الجاهل والمتعلم ، وعند الغفير وصاحب المنصب الكبير . ولم يكن مجتمعنا هكذا ، بل كان الكاذب الأشر إنساناً منبوذاً .

و نعلم أن المجتمع الذي نجد فيه الكاذب مكاناً ، ويحترم فيه !! . . . هو مجتمع في أعماقه يتحلل في انهزام . وتظهر الشروخ في البناء الاجتماعي والاقتصادى عند ما يكذب بعض رؤساء المصالح أو الإدارات ، ويستمررون في الكذب ، والاحتمال كبير جداً جداً أن يستحى المرء وسون فلا يكذبونهم ، بل يقلدونهم على مستوا أقل أو قل متواضع . وماذا يفعل واحد من الناس أوصله الكذب إلى ما يريد ؟ سوف يستمر في هذه اللعبة . وهذا الأخ (المحترم) الذى كذب ويكذب ربما سيصدق ما يقوله هو . مثل جحا الذى قال للناس أن هناك ولجبة ، واندفع القوم إلى حيث الولجبة ، ووقف هو يراقبهم ثم تبع وصدق كذبه !! .

يجب أن تقف السلطة بكل عزم وحزم محاربة هؤلاء الذين يتقربون في نعومة المداهنة ، محاربة هذا الذى يتناقق وفي عينيه براءة الحمل الوديع ، ودخان الكذب يتصاعد من كل خاجة في وجهه . وإذا كان الكذب يستر رذائل كثيرة ، فهو يؤدي إلى انهيارات خلقية كبيرة تطيح بمحاولات مجتمع نام يروم التقدم .

لو أن أسبوع النظافة نجح وحقق أهدافه لطلابنا بأسبوع « الصدق » ، ولنحاول أن نسبقه بأسبوع لصدق الفرد مع نفسه . وأشك في تحقيق هذا ، أما إذا تحقق أسبوع « الصدق » وامتنع الناس عن الكذب فسوف تحدث أمور عجيبة ، فالمجتمع غير مستعد لكل هذا الصدق . وإذا قلنا أن يكون هناك نوع من الكذب غير الضار مما يسمى بالكذب الأبيض ، فإن محاولة

الصدق قد تخرب بيوت البعض ، وتجنّب البعض ؛ وتغيظ وتبكي البعض ، بل ربما تؤدي بأصحاب الكذب المرضى إلى الانتحار .

قال أحمد : التربية عندهم هي المسئولة ، وبقوة . لا أعنى تربية الأطفال فقط ولكن إعادة تربية بعض الكبار المسئولين عن تربية الصغار ، وكذلك بعض الذين يحتلون مناصب كبيرة ومن يتعاملون مع جماهير الشعب . القضية قضية أخلاق . لإعادة التربية تعنى محاولة التخلص من اتجاهات وميول وعادات أصبحت غير صالحة لمجتمع يريد تخطى السنوات ، ويجاهد بكل العزم ليتقدم حتى ولو أدى الأمر لأن ينشب أفرادهم أظافرهم في الأرض باحثين عن الماء ماء للبقاء الكريم . ولن يكون بقاء كريم دون أخلاق كريمة لا لثقله فقط ، ولكن للغالبية العظمى أو للجميع لو أمكن هذا هل هو ممكن ؟

وضع تفاؤل ربيع العمر .

دخل أحمد مسجد القلعة بعد أن صعد خطوات طويلة . وخرج منه سريعاً بعد أداء الصلاة ؛ ووقف يتطلع إلى القاهرة المحروسة ، وكان قد سمع نجير الفرمان ، وماذا يعنى .

يقول أحمد وفي عينيه دموع تجمدت ، وفي قلبه لوعة لا يستطيع إلا أن تستمر . نظر إلى القاهرة ومبانيها ومآذنها وطرقاتها ، حتى وصلت عيناه إلى النيل يجري ماؤه . قال . . . رب ، إني قادر على التحصيل ، قادر على أن أنهل من العلم الكثير ، قادر مع غيرى على إنماء هذا المجتمع ، لا لهدف عسكري يريد الوالى . . . لكن يارب . . . نسمع عن فرمان يصلر ، وجيش يتضائل ، ثم مدارس عليا تقفل ، لأن الهرم وضع مقلوباً . لقد أرادوا فنيين كأطباء ومهندسين للجيش ، فسخرُوا كل الأجهزة التحتية

لتحقيق أهداف الأجهزة الفوقية . وعند ما انكشفت الفوقية في تحديده شديد ، كان على التحية أن تقفل أبوابها .

وتحدث محنة في دور العام والتعليم . رب هل تصبح عقول البشر نهياً للتيارات السياسية وأهواء أسرة من خارج مصر . وعقول الناس تفروها رياح ، وليست لديهم قوة التصدي لها . وعشرات الألوف مثلى فقدوا حماسهم ، وكادوا يصبحون مثل عبيد الإغريق القدماء . لهذا أنا أغضب

لا يلدرى أحمد ماذا كان يجتبه له هذا اليوم ، فقد هبت عاصفة خماسينية أفسدت الأماكن ، وذرات رفيعة من الرمال تدخل الأنوف والعيون وتؤلها . وكان عليه أن يخرج ، ولبس جلبابه وطاقيه من نفس لون الجلباب ، ثم لبس رداء طويلاً حتى يحل الوقار ؛ . . وركب الحمار . كان الحمار في ذلك الوقت وسيلة مواصلات مريحة وعملية ، فراكبه لا يتحمل مشقة الصعود إلى القلعة ، ولا يجد مشقة في إيجاد مكان يربط فيه الحمار ، ويذهب إلى شأنه . ثم نزل على حماره من القلعة وقد غطاه الغبار وكذلك الحمار من الرأس إلى القدمين .

وأحس أحمد شيئاً ما يضايقه في صدره لا يلدرى سببه . وأسرع إلى زوجته شوق ، وكانت تتلهف إلى لقائه . وكان ثمة شيء ما حدث ، فقد وصلت حماته . وأحمد في ضيق نفسى وكذلك شوق ، بينما الحمأة في بجوحة نفسية ، واجتمعوا ودار حديث ، وصار دق على الباب إزداد عنفاً . وكان الطارق زميلاً لأحمد يكبره سناً . وأخذه خارج الدار وأنهى إليه أن الحمار يعود إلى السلطات ، إذ ليست هناك أية رغبة في تعليمنا . قال أحمد سعيد هذا الحمار الذى كان عليه أن يطلع يومياً هذا المشوار ، وربما أخذه إكاري كان أكثر تعطفاً وكرماً منى ، وتحول من قطاع عام إلى قطاع خاص .

ودخل أحمد داره ، وكان على وجهه خطاب مفتوح قرأته زوجته دون

فهم . وضمها إلى صدره ولم يثبتها بسره . ربما عرفت فيما بعد ، ولكنه لم يتم تلك الليلة ولم يسترح لأن الغضب تملك عقله وإحساسه وأحشائه وجسمه .

عندما غضب أحمد عبر العصور ، لم يغضب لنفسه فقط ولكن للكل . لقد أراد خيراً للمجتمع ولنفسه ، ولقد ظلّمه هذا المجتمع ظلماً بيناً ، ولم يدر هذا المجتمع أن أحمد لبنة المجتمع ، سداته ولحمته . وأحسن أنه هو القادر على أن يأخذ بيد المجتمع إلى التقدم . ونجىء الدموع إلى عينيه لأنه كان يريد ولم يستطع أن يحقق ما يريد . وهذا موقف يعاني منه المجتمع ويعاني منه أحمد .

أحمد القرن الحالى الذى نعيشه يتساءل ، هل كان روسو مصيباً عندما قال مخاطباً مجتمعه . . . سيروا ضد ما أنتم عليه تصلوا إلى النجاح ، نحن لانعلم عن الطفولة شيئاً وكلما مضينا فى طريقنا ونحن على جهل بطبيعة الأطفال إزددنا تورطاً فى الأمر وبعداً عن الصواب . . . ربما كان روسو مبالغاً بعض الشيء ، فنحن لانستطيع أن نغير كل شىء ، وليس من المنطق ترك الماضى كلية .

لكن علينا أن نفكر بطريقة جديدة جريئة ، قد يراها البعض يوتوبيا وردية ، وأراها ركيزة رصينة لبناء صرح تربوى يقف أمام المتغيرات والتحديات المحلية والعالمية . هل نحن فى تربيتنا نسير على خط سليم ؟ أم ربما هناك خط آخر أكثر سلامة ؟ الأمر يتطلب خطوة جبارة تدعونا إلى إعادة النظر فى كل القوالب التى عهدناها وعشناها ونعيشها . وطالما أن هدفنا تقدم المجتمع وهادبنا إيمان عميق صادق بالله ، فلنفكر بصراحة ناقدة وفى واقعية مجدية لصالح مجتمعنا .

منذ حوالى نصف قرن حاولنا أن نمحو الأمية ، ثم أن يصل الإستيعاب فى المدارس الابتدائية أكمله ، ولم يحدث لاهذا ولاذاك . ربما كانت إجراءات روتينية إزاء محاولات جادة وصادقة من المسؤولين ، ولكن ثمة شيئاً يبطله أو يعرقله عجلة الاصلاح ولكن هناك دائماً مشجب الإمكانيات المادية

وضعف المخصصات وقلة الإعتمادات . قد تكون هناك نظرة جديدة وجريئة ولا أقول معجزة في عصر اللامعجزات ، ولكن هناك شيئاً . . .

ربما فسدت بعض المشروعات الجديدة في مصرنا العزيزة لأن مجلس إدارة ما يقدم في نهاية العام تقريراً لم يصدر فعلاً عن الواقع المؤلم الذي يسير فيه المشروع . ولكن تزييف الحقائق أمر سهل حتى يرضى الرؤساء على المرعوسين ويضيع الناس ويضيع المال ويضيع مقوم أساسى لنمو المجتمع ، فقد زيفت الأرقام والنتائج .

ونحن هنا نضحك على أنفسنا . . . وكفانا وكفانا . هؤلاء المزيفون يجب أن يعاقبوا . . . وبقسوة . علينا أن نعرف أننا بلد يحاول أن ينمو وأن يتقدم ، وأن نكون أكثر واقعية ، فالفارق الحضارى والتربوى بيننا وبين الدول المتقدمة لا يتضاءل بل يتزايد . ربما قد آن الأوان لالبكاء على ماضى ذهب وولى ولكن بصراحة واقعية . الإعراف بالسوء ليس عيباً ، ولكن العيب الاستشراء فيه بعد عدم الإعراف به .

خريطة العملية التربوية في بلدنا فيها مناطق داكنة وأخرى باهرة ، والعقول المفكرة موجودة ، وكثير من النيات صادقة . . . لكن ماذا يحدث ؟ هنا تنطلق عقلة اللسان والنطق مع تفتح القلب .

* * *

لست أدرى ، ولكن فى جلستى مع أحمد ، وقد ألت به إحساسات كونتها هذه العقاقير المهدئة ، ومن خلال ما هو فيه يحاول أن يسترجع أسباب وركائز هذا النضب . . . أسمعته يتساءل عن هذا الإندفاع قليل النجاح نحو الأمية ، وقد مضت عشرات السنوات وما زال الموقف سيئاً ، يتساءل هل هناك صبيغ أخرى قد تكون أكثر نجاحاً . . .

دائماً كنا ننتظر أن يأتى إلينا الأميون والأميات . . . لماذا لا نذهب نحن

إليهم ؟ وكل الوزارات المعنية تسهم بنصيب ، وخريجو الجامعة أيضاً يسهمون ، وكل من يستطيع فليسهم .

تقوم القوات المسلحة بأجهزتها وإمكاناتها الهائلة في مكافحة الأمية وتدريب المهنيين ولها إنجازات عليها أن تنفخر بها ، ولنا أن نطلب منها نشر هذا تفصيلاً فقد يفيدنا وقد يدعو إلى تفكيرها في مضاعفة هذا الجهد مرات ومرات وخاصة في جانب التأهيل المهني .

وقد تكون خطة قومية على مختلف المستويات والتخصصات والمؤسسات عامة وخاصة ، وقد يكون غزو للتعليم كما صار غزو للصحراء . . . :
والله مع المؤمنين الجادين .

* * *

وقد خرج أحمد طفلنا الذي أصبح يافعاً وما زال أيضاً غاضباً . وقد أوصلته قدماه إلى حافة التربة التي تناثرت على جانبيها أشجار ضخمة تحكى قصة الزمن الحاضر والماضي وربما الماضي البعيد إلى حيث تمتد جذورها في باطن الأرض .

وجلس أحمد وبدأت الجلسة تطول مع توارد الأفكار وقد هاله ما رأى بما يسمى بدور العلم والتعليم ، وربما دار بذهنه ما حدث في كتاب ألف ايلة وليلة من تصورات وأفكار طورها هوني تفكيره وكان ثاقباً إلى تخيل لمستقبل . وربما جاءته سنة من نوم مع النسمة العلية فاستند بظهره إلى جذع شجرة وتمدد في إغفاءة رأى فيها كما يرى النائم سحبا كثيرة متراكمة ثم تسرق الشمس هنيات تقتحم فيها أشعتها الأرض ويفرح القوم الذين هم عليها ، ثم تتكالب السحب القائمة وتقتل الأشعة في غير هوادة . ثم تغيب الشمس .

ورأى أحمد أن هناك صراعاً بين ما يسمى - بوقتنا الحالي - بالمعادلة الصعبة

بين القدرة المالية لمجتمع نام والضرورة الملحة لهذا المجتمع لتطوير تعليمه . معادلة صعبة بين الإمكانيات المادية وتطوير التعليم حتى يأخذ هذا المجتمع النامى إلى مسار ينمو فيه ويخرج من هذه الدائرة التى تضعه فى مصاف الدول وهى النامية غير الدول اليى أكملت نموها، هو صراع بين مجتمعات سابقة للتصنيع ومجتمعات صنعت فعلا ، وهذه أغنى من غيرها .

وتراءى لأحمد وهو يستجلى الموقف فى مصر ، وقد درسه سابقاً ، كيف نستطيع أن نطور وبسرعة كبيرة ، بينما نحن صنائياً وزراعياً ومادياً مازلنا نحاول . نضحى بماذا ؟ بتطوير للتعليم بكل ما يحتاجه من إمكانيات مادية نضعها إذن فى أيدي رجال الصناعة والسياسة والاقتصاد ينهضوا بالبلد صنائياً وزراعياً وتجارياً . . . الخ حتى تأتى الأموال المتدفقة ؛ ونترك للتعليم كما هو حتى إذا أتى الوقت وأصبح لدينا الوفرة والكثرة إنجهنا للتعليم ؟

أم نبدأ بالتعليم فننتقى عليه الكثير الغزير ، ونطوره ونحسنه ونبنى أجمل المدارس ونعد أحسن المدرسين؟ عائد هذا العمل مردوده بعد سنوات طوال وربما جاع الشعب واشتكى . ومازال أحمد فى حلمه مسائلاً - ربما نددت عن نفسه زفريات كثيرة ويتساءل : ماالحل ؟

والحل المقترح لم يأت إليه عن طريق الحلم أو الرؤيا . فاستيقظ أحمد ، ربما ذبابة داعبت بشرته أوروبما صوت عال طرق أذنيه . . . الأمر الهام أنه إستيقظ ، وتلفت حوالبه فالمنظر كما هو لم يتغير :

هى إذن محاولة لإيجاد معادلة جديدة بين الاقتصاد والتربية ، هى معادلة تحاول أن تربط فى جدية بين حاجة النمو الاقتصادي إلى أعناد وفيرة من الأفراد المدرسين تدريباً جيداً ، وبين التطور التعليمى من ناحية ، وبين المهارات والمعارف اللازمة لمجالات التنمية المختلفة وبين مستويات وأشكال التعليم من ناحية أخرى .

إذ يعتبر الجانب الإقتصادي للتربية في عصرنا الراهن من الأمور الهامة ، فقد جاء الاهتمام به من اعتبار رأس المال البشري السبيل الثرى لتحقيق للتنمية الشاملة وفيها الاقتصادية ورفع مستوى الكفاية الإنتاجية ، والدليل واضح لما حدث في البلاد المتقدمة .

ثم يتساءل أحمد هل من الصواب معالجة الاقتصاد على أنه جزء منفصل عن ثقافة المجتمع؟ هل من الصواب النظر إلى الثقافة دون أن تضم في جوانبها مضامين اقتصادية؟ هو يشك . إذ يعتبر التعليم عملية استهلاكية وإنتاجية في آن واحد ، بل إن جانب الاستهلاك لا يعتبر من قبيل الترف والكماليات ، بل هو يعتبر أساساً لزيادة الإنتاج ، حيث أن ما قد يبدو استهلاكاً هو في حقيقة الأمر طاقة يستخدمها النظام التربوي لزيادة كفاية الأفراد . . . وهذا في صالح المجتمع وتنميته الشاملة .

هل من حملة شاملة يكون فيها النهوض بالتعليم ومعظم مظاهر الأنشطة البشرية في وقت واحد . هذا أمر يحتاج إلى كثير من إمعان في التفكير وإهمال فيه ... هل يمكن أن تصبح بعض مدارس التعليم الفني منتجة ، ولا يحتاج أتعلم فيها إلى ميزانية من الدولة؟ ثم أين دور المصانع والشركات والمؤسسات ...؟

• • •

وكان هم كبير وضع على صدر أحمد فأوى إلى مضجعه وزوجته شوق إلى جواره وقد غلبها النعاس فنامت . وأراد أحمد النوم ، وهز عليه . وكان يأخذ جانبه من المرير قلباً ذهاباً وجيئاً . وقد أحست شوق بقلقه وسهده ، وسألته في نصف نعاس عما به . ولم يجر جواباً ، ربما أشفق عليها فأخذها إلى صدره واعتصرها حانياً وهو يعيدها إلى السبات العميق ، وود لو أمسك بها طويلاً ...

وربما أحست شوق وهي في طريقها إلى النوم العميق أن ثمة أشياء يموج

بها صدر أحد وتريد أن تبلج وأن تدفق . وبقدر صمته كانت نحس أنها أشياء تعنيه وتهمه وتورقه لأن الرياح لم تأت بما تشهى السفن . وحدث هذا في ليال سابقة ؛ وكانت كلما سألته دعاها أن تسريح وتنام وأن الصباح رباح .

وما زال أحد يحس هذا العهد القوي ، بل يحس أن النوم قد أنهزم أمامه ، وأنه أصبح أسير الشهر . ثم ترك السرير وقام إلى مكان آخر . جلس ... وربما جلس إلى ربه وتساءل أسئلة كثيرة ... فنحن خلقنا سواسية كأسنان المشط ، ومع ذلك يمنح البعض ويحرم البعض . تسأل وقد مر بنجرات كثيرة أمس وأول أمس ... ورأى أموراً تلور في المجتمع ضايقه وأغضبه ... الناس فرادى كل يبحث عن مصلحته وفائدته ؛ لا تربط بينهم محبة مشتركة .. إلا في أحوال نادرة ؛ ربما في مناسبة دينية ؛ لكنهم سرعان ما ينفضون . ربما جمعهم ظلم من الوالى العثماني ، أو من ممثل تركي للسلطة ، ثم ينفضون . كان المفروض أن أوامر الدين تلعب دوراً هاماً ، وفي تنفيذها يكون سلوك مشترك فيه تعاون وتآزر وعدل وحق ... وكان المفروض أن يكون هناك تعليم يناله الجميع ويتعلمون ويكتسبون مهارات سلوكية وفيها ... ومن هذه المصادر لا يكون هذا التنافس المذموم المؤكد للأثرة والأنانية .

وأنتطلع إلى أولى الأمر منا ، رجالنا الكبار ولهم المقام انرفع في هذا المجتمع وأسألم ماذا فعلتم للصغار ؟ تحت كل الظروف وفي ظل أى استعمار ماذا فعلتم للأطفال في إعداد ليلعبوا أدوارهم ضد هذا الاستعمار ؟ وأنتم قادة لهذا المجتمع ، حتى مع وجود جنوده وأتباعه ، لماذا لم يكن لكم دور أسامى في إعدادنا وتربيتنا لمقاومة الأجنبي الغاصب ؟ لهذا أنا غاضب . أنا غاضب طفلاً وغلاماً وشاباً متطلماً إلى عزة وكرامة بلدى وأرضى وسماى .

إن غيبة هذه القيادات ، وكان المفروض أن تكون حاسمة حازمة أدت

إلى ما نحن فيه من تسيب ، وإلى عمليات التزييف ودفن الرشاوى لقضاء الحاجات والمصالح . والباب العالى ، والصدر الأعظم ، قابع سعيد فى الآستانة والوالى يبعث إليه مما توصل إليه الملتزمون . والفلاحون يدفعون خوفاً من البطش والضرب والسجن .

والأيام تمر والسنوات تمر ، ونصوم كل رمضان ، ونعمل الكعك فى العيد ، ونضحى فى العيد التالى . وكل شىء يسير تماماً فالمسحراتى وطبلته موجودان ، والجزار والخروف موجودان وأصناف الطعام بكنافاتها وقطائفها وثريدتها وجوزها ولوزها وعنب الشام وبلح اليمن كلها موجودة ومأكولة . وتشيع البطون وينام الناس وتنام العقول وتنام وحية الشعب ويصبح الأطفال غضبي . .

وبدأت تهادى ساعات اليوم الحديد الصغيرة وتندق دقائقها ، والناس نيام والمهدوء يسود ، والنوم عن عيني أحمد متمرده ، وهو يستعطفه ويرجوه ولكنه يتدلل فى تعزز . يقول أحمد :

أحسست أن فى صدرى ما يؤرقنى ، قمت إلى ربى وتوضأت وصليت . أحسست وأنا واقف بين يديه أننى كبير كبير وفى أمن . لماذا ؟ لا أدرى ، لماذا فى هذه الصلاة بالذات كنت منه قريباً ، وقريباً جداً جداً وكان ربى معى ويتملكنى فى كل قطرة من دمي تجرى فى عروقى ، وأحسست كل الأمان وأنا أسبح فى فضاء السعادة والراحة . ربما ما كان بى من إيمان أعطانى هذا الأمان والسعادة الراحة

إن ما يحدث لى هو بإرادته ، وما سيحدث لى أيضاً هو بإرادته ، وقد نزل ما حدث لى برداً وسلاماً ، وبكل القناعة والرضى تقبلته . ولقد سألت خالقي وهو يحينى ويميتنى : هل لى من عمر أستطيع أن أبوح به بمكنونات صدرى وأن أخرج مابه من تأوهات والآم أخفيها وأخفيها فى حياتى ،

عن أهلى ، وأصدقائى وزملائى ؟ وقد يخذعون بهذه البسمات والضحكات
وربما يحسدوننى على شىء من المرح يغلف تصرفائى ... ولكنهم لا يدرون
بهذا البركان الثائر فى أعماقى . مافوق السطح هادىء ناعم . دنيا الأرض
وبين سكانها لا بد أن يعيش الترد وسط جماعة ، أما براكينه وزلازله
الداخلية فلتتبق حبيسة صدره وتحت قشرة الدماغية .

ولا يستطيع الواحد العاقل أن يكون فضفاضاً فى قوله ، يغمر غيره
بمخلدجات صدره حتى لا يحملة أسرار قلبه . . . وفى (القلب) الكثير .

وتكبر ساعات اليوم الجديد ، فمن الواحدة صارت الرابعة ، وبدأ
فجر يوم جديد ينبجج ، وخرجت إلى أجمل الحدائق قاطبة فى القبة الفداوية
عبر الطريق حيث أعيش ، وقد بدأت الخيوط البيضاء تهزم جيوش
الخيوط السوداء :

الحياة التى دبت فى جنين اليوم الجديد جعلته الآن يقف ويمشى
الهيونا ، وتدب على الطرقات أقدام ، وينقل الهواء أصواتاً ، وأرانى أنصت
فى لطفة ، وأحس أنهم ناموا وشبعوا نوماً - ربما - واستيقظوا والفرح والأمل
معم . أنا لم أتم . هذا حسن . لكن لماذا لا أشارك القوم هذا التفاؤل ؟
وتفاءلت وأحسست إرتياحاً وبهجة ، وبدت الدنيا جميلة ، وكرهت أن أنام ،
وليذهب عنى الكرى .

وكان شذى الفجر عبقاً ، وقبلت قطرات الندى سطوح ما تكونت
عليه من الأشياء وأحسست أن الدنيا بكر ونظيفة وطاهرة وأن رائحتها خير
وعطرها روى :

ودلفت إلى الحديقة فى إحساس أننى أسبح فوق الأرض ، فكل ما بى
صفاء ونقاء وحب . ما كان واجباً أن أغضب وأن أغضب الغير ... كل شىء
إلى زوال : . ويبقى وجه الله العلى القدير .

(م ٩ - طفل غاضب)

اقتربت من ردة حمراء اللون ، وقطرات الندى تغطيها فتزايد حياؤها
وإستسلامها شهوة للناظرين ، وأحس بعيني تلتهمانها . وهي جميلة فاتنة جميلة ،
ولقد خلقها الله لى ، فداعبتها وهي متقبلة دعابتي ، وتحسستها فصبغت أصابعي
بشديها . أحببتها فقبلتها وبأنانية انتزعتها ، أحسست بالشجيرة تبكي ، وبالوردة
تزغرد . وضممتها إلى شفتي المشتاقين ، ثم إلى صدري وجلست ... وأصوات
الخلق تزايد في تصاعد ، وأنا استشعر لذة ضمى إليها وهي في روعة الخضوع ،
وقد انسحبت نهائياً الخطوط السوداء وتألقت خيوط الصباح البيضاء .
وأحسست شيئاً عند قدمي ... إنها تلك القطة الساذجة . وحملتها :

وأخذت وردتي الحمراء بعيداً عن أسرتها المتمثلة في الشجرة وعن
قبيلتها وعن مدينتها إلى مدينة أخرى ، ومازالت بين أحضانتي وفي حماي ،
أنا رجلها وحبيبها . وكنت في قمة النشوة وأنا أبدأ التحرك إلى بيتي ، وقدماي
قليلاً فوق سطح الطريق ، وداعب وجهي في لحظة شعاع أصفر ذهبي
أرسلته شمس الصباح في قبة دافئة كأنها تهنئة بيوم جديد . . . في عمري . . .
المديد ... !!

وعدت إلى حيث أنام ، ولم أنس أن أضع وزدتي في أحضان ماء
في كوب آثرت أن أضعه ناحيه شوق حتى إذا فتحت عيناها رأت الوردة
الحمراء وهي تحب الورد الأحمر . وتبعثني القطة حتى اتخذت لها مكانا
بجانب السرير .

وأنا أظير في الحجر إرتياحاً وشكراً لله الذي أعطاني هذا الهدوء
وأتجهت إلى حيث أضطجع وأسلم رأسي إلى الوسادة ... إحساس هائل في سكينته
وطمأننته حتى أنني حسدت نفسي . ومع هذه اللذة الغامرة إنساب النوم إلى
رقيقاً في شفافية ملائكية .

وعادت شوق إلى ، وقد أعدت طعام الإفطار ، في مرحها وثياها

الأنيقة الرقيقة ووجهها انباس المشع ضوءاً ... لم أراه في هذا الضياء والنقاء من قبل . وناديتني بصوت رقيق وهي تجلس بجوارى وأصابعها تجوس في شعري كما تعودت ، ثم ... يدها على جبتي ... شعرت أنها أحست برودة غير معهودة ... وتحسست وجهي ، فهو بارد ، ناديتني ... لم أجب . هزيتني في خوف يتفاقم ، وهزيتني ، ولا يجيب .

وضعت يدها على فمها إذ كادت الصبيحة تلوى ، أما عيناها فواسعتان في ذعر : ومرة أخرى تحسست الوجه وهزت الجسم ... وكانت الروح قد عادت إلى ربها راضية مرضية ، والجفنان مسبلان ، والوجه ناعم في هدوء الطمأنينة ... وليست على الوجه ذرة من غضب .

أحمد ... مات ... والوردة دبكت ، وانتفضت القطة الساذجة مذعورة مات ... مات أحمد ولم يكن غاضباً فقد عاش قبل موته سويعات تفاؤل .

تسهيلات جهرية لاستيراد الأفكار

وبنون تحويل عملة !!

يقول أحمد . . لعلمي مستدابع أن أسهم بعض الشيء في مسار الحركة التربوية في مصرنا العزيزة ، ولعل إسهامي في الادلاء ببعض الانطباعات والآراء قد يفيد ، وقد نشئت في مجتمع غربي متقدم سنوات طالت ، وتعلمت وعلمت . وليس عيباً أو استشعاراً بنقص أن نأخذ منهم ما قد يفيدنا من حيث نتائج تجارب وأبحاث ، ومن أفكار وآراء . لكن العيب أن نظل نقول إننا علمنا الغرب في العصور الوسطى واستوردوا منا ، مسلمين عامة وعرب خاصة ، زبد الأفكار في العلوم والإنسانيات ، ونركن إلى هذا التراث المجيد بناهي به .
نفوقنا عليهم بالأمس وهم يتفوقون علينا اليوم ، فلنستمع إلى ما يتقواون دون حساسية . ولنأخذ ما نريد كما أخذنا السيارات والطائرات ... وحتى

(الميكروفونات) التي ينادى البعض أمامها برفض المخترعات الأجنبية . بل هل يمكن أن نستبعد نتائج الانجازات الطبية والهندسية . الخ ؟ ليس مما يتقص من قدر مجتمع ينمو الاستفادة من مجارب الغير المتقدم والنامى في ميدان التربية على مستوى الأسس والركائز بعد تطويعها لتلائم المجتمع المصرى بطروفه وإمكاناته وقدراته المادية والبشرية . فالتربية كما تعلم عملية إنسانية في المقام الأول ، والإنسان في طبيعته هو هو في الشرق والغرب : وإنما المجتمع يشكله بالضرورة التي يريدتها ، وقد ينجح أو لا ينجح ، لكن الطفل اليابانى بعد ميلاده بسنوات قليلة يتكلم اللغة اليابانية ؛ وليست العربية أو الإنجليزية .

يا أخى . . عندما أتحدث إليك ومعك وأنقل بعض أفكارى فهى ليست نبأ كاملاً من علمى لوجدى ، ولكنها ثمرة قراءات ومواقف خبرة سواء في مؤتمرات أو حلقات دراسية تمخضت عن توصيات . . هى ثمرة من ثمار حياة في الحقل التربوى عشتها وفكرت فيها وأفدت من خبرات غيرى وتفاعلت وهضمها عقلى في استيعاب صار يغذيني وينمى علميا في قناعة رصينة أكيدة فاعلة ومؤثرة .

لهذا ترانى - يا أخى - استخدم صيغة الجمع ، ولا أقصد بها تعظيماً لذاتى أستغفر الله ، ولكن اعترافاً بأن هذا ليس رأيى أنا . . فقط . لهذا أقول ، ونقول ، وليس لنا حول ولا قوة في عملية التنفيذ ، ولكن لنا قوة في أن نقول وأن نعبر عن رأينا . . وعن رأيى .

عندما ندلى ببعض الأفكار ، إنما نلبي واجبا قومياً ، قد يقبل بعضها أو لا يقبل ، ليس هذا شأننا ، كما لا نتدخل ولو قليلاً في أقل خطوة تنفيذية أو اتخاذ أى قرار . أقول (في تواضع) من يعرف ماذا يقول ، وماذا تعنى أقواله ، وماذا ترمى إليه . الجدية تعنى الكثير ، الصدق رائدها ، والرغبة في التجويد والتحسين هاديا ، والإيمان بالله والوطن منطلقها . . والله العلى القدير يرعانا جميعاً .

• كيف يكون التعليم في المدرسة أفضل ؟

• أن نلقى سؤالاً ، هذا شيء ، وأن نحاول الإجابة عنه ، فهذا شيء آخر ، ذلك لأن الإجابة تتضمن الكثير من المسائل والمشاكل شديدة التعقيد . بعض المسائل يمكن تناولها بالفكر والتعقل ، وبعضها يدعو إلى دراسة علمية موضوعية . وفي كلا الرأيين أو الموقفين فإن عمليات التطوير والإصلاح تظهر آثارها فيما سيحدث في المدارس حيث يكون التعليم النظامي .

وحتى تنضح الأمور أكثر فإن تساؤلات كثيرة تفرض نفسها ، منها تساؤلات نابعة من اتجاه قد يحلو للبعض الذين يأخذون موقف ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وهو موقف مشبع بالسلبية قوامه :

- بذلت محاولات إصلاحية سابقة ، وكان هذا الذي نحن فيه هو أفضل موقف .

- تعاني البلد موقفاً اقتصادياً وصل في وقت قريب إلى درجة الصفر وأمامها سنوات طويلة قبل أن نستطيع مجابهة الأعباء المالية المطلوبة لتطوير التعليم .

- في غياب وعي الرأي العام بضرورة إسهامه الفعال مع الهيئات الحكومية ، فإن الإصلاح والتطوير أمران غير واردين . وجزء من هذا الرأي العام القطاع الخاص الذي ما زال يعتمد اعتماداً كبيراً على الجهود الحكومية .

- حتى تكون للتطوير والإصلاح أرضية صلبة فليقلل المربون ورجال التربية وعلم النفس من هيمنتهم وسلطانهم على العملية التربوية وعليهم أن يشركوا معهم - وعلى قدم المساواة - تخصصات أخرى تعنى التربية كما تعنيهم . . .

- كآباء وأولياء أمور .

- كما ملين في تخصصات شتى في المجتمع .

كل هذا جميل ويمكن أن يناقش وي طرح على مائدة البحث ، وقد نسلم ببعض ما جاء فيه ، فالمشاركة والمعاونة أمران ضروريان ، ولكن من المستحيل ترك الأمور على ما هي عليه في المدارس وهي تزداد سوءاً . ولا بد من عمل سريع ، دون انفعال أو تسرع . ويجب أن تكون هناك بداية لعمل حتى يصير العمل . . .

وقد ينادى نفر من الناس بدعوة لانهل كما أهملت الدعوة السابقة ، لانهل حركة التطوير والإصلاح . يدعو هؤلاء نفر إلى السير في طريق التربية فإذا كانت هنا حفرة في الطريق رتقناها أو غطيناها . ثم نسير على الطريق فإذا وجدنا بروزاً يعرقل المسيرة أزلناه حتى تستوى الأرض ، وهكذا . قد يتطلب الأمر فرقاً للعمل الإصلاحى ، وقد تعمل على واحد من الخطين الآتيين :

- فرق تعمل بطول الطريق فنتناول - على سبيل المثال - جانب الطريق الأيمن أو الأيسر وتعمل على إصلاحه ، كأن نتناول قضية الكتب المدرسية (من حيث مادتها وإخراجها . . . إلخ) ابتداء من الصف الأول الابتدائى إلى نهاية المرحلة الثانية . وفريق آخر يتناول إعداد المعلم لكافة المراحل ، وفريق ثالث يتناول المواد المهنية في مختلف المراحل . . . إلخ . - فرق تعمل بعرض الطريق ، فنقسمه إلى خطوط عرضية تؤدي إلى

تجزئته إلى أجزاء ؛ قد تكون بالتحديد

- مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية

- مرحلة المدرسة الابتدائية (المرحلة الأولى)

- مرحلة المدرسة الإعدادية والمدرسة الثانوية (المرحلة الثانية)

فيتناول فريق المدرسة الابتدائية مثلاً من جميع جوانبها وأركانها ومشكلاتها ،

مثل المناهج والمباني والتسرب : الخ. ويتناول فريق آخر مرحلة أخرى . الخ
وهذا جميل أيضاً ، ولكن من حقنا أن نساءل :

— هل هذا أسلوب فعال في معالجة قضية تطوير وإصلاح التعليم ؟

— وهل هذا هو أفضل البدائل ؟

وقد يرى نفر من القوم أن العملية التطويرية الإصلاحية تنسم بالشمول والتكامل . وهذا يستدعى وضع سياسة وإستراتيجية تتضمن مجموعة من البرامج المتكاملة والتي تشكل في مجموعها عملاً منسقاً في علمية رصينة مؤدياً إلى الإصلاح التربوي .

الذي يعطى رأى هذا نفر من القوم أهمية هو أنه — عكس أولاً — لا يتجاهل مافى العملية التربوية من قصور وضعف ، ولا هو — عكس ثانياً — ينظر إلى التطوير كجزئيات متناثرة إذا أصلحت جزءاً فيضيع الإصلاح بين أخطاء وعبوب جزء آخر . وما يعطيه أهمية أيضاً أنه يمكن تنفيذه منطقياً وعملياً خاصة إذا وجد المساندة السياسية من الدولة .

وإذا أخذنا هذا الإتجاه الشمولى التكاملى ؛ فنظهر مجموعة تساؤلات يمكن تحويلها إلى إفتراضات

. — التغير حادث فى المجتمع ، وحادث بمستويات مختلفة فى العالم
— يشعر المجتمع المصرى أن هوة التخلف بينه وبين المجتمعات المتقدمة عميقة وتزداد عمقاً ، لأن تلك المجتمعات تتطور وتتقدم بأسرع ما يحدث فى مصر
— إذا حدث تغير تربوى — إلى أحسن — فإن العلاقة بينه وبين إصلاح المدرسة سيؤدى إلى خيرها .

— هناك إشتراطات معينة للتغير التربوى

— هناك علاقة قوية بين سياسة الدولة والتغير التربوى
ويلوح أن دراسة هذه الإفتراضات وتحليلها سوف يؤدى إلى وجود تسلسل منطقى للعملية الإصلاحية التربوية التى يحتمها المجتمع اليوم .

إن هذه العملية ضرورة سياسية وإجتماعية وإقتصادية وإلا إنعزلت المدرسة عن متطلبات المجتمع ووجدت نفسها جزيرة صغيرة وسط أمواج متلاطمة بعيدة عن أرض الواقع الشاسعة ، أو أنها تعيش في ماض لا يهم الحاضر والمستقبل إلا في أمور قليلة .

وعندما نتحدث عن التغيير التربوي فنعني هذه المحاولات المخططة أو / و المستحدثات المتعمدة والمؤثرة على العملية التربوية . إن مجرد معرفتها أو الإلمام بها دون استخدامها لا يحدث بالطبع تغييراً . كما أن سوء استخدامها كالتسرع وعدم الاستعداد الكافي لها ، لا يحدث تغييراً .

وعندما نتكلم عن اشتراطات مسبقة للتغيير فنعني مجموعة اعتبارات يجب تواجدها وفعاليتها حتى يحدث التغيير والإصلاح في المدرسة ، فيتطلب الأمر مثلاً نوعية معينة من المدرسين في إعدادهم الأكاديمي والمهني والثقافي ، وقد يتطلب الأمر مقررات معينة لها طرائق تدريس خاصة بها الخ

وعندما نقول إن هناك علاقة وثيقة بين سياسة الدولة والتغيير التربوي ، فنحن هنا نؤكد أهمية التربية السليمة على تطوير وتقديم المجتمع ، ثم أن التعليم في مجتمعاتنا الاشتراكية الديمقراطية هو مسئولية الدولة وهي التي تنفق عليه ، وعليه هو بالتالي أن يعمل على تحقيق أهداف المجتمع وصولاً إلى تقدم ورفق .

وبهذا قد تتضح الصورة على النحو التالي : أهداف المجتمع تؤدي إلى وضع سياسة عامة لتحقيق هذه الأهداف ، وتشتق التربية فلسفتها وأهدافها من فلسفة المجتمع ، ثم تضع البدائل لتحقيق هذه الفلسفة والأهداف ، ثم تتخير استراتيجية معينة تخطط على أساسها الأعمال التربوية ثم تنفذها . وهنا يحدث التغيير في المدرسة الذي - آمليين - يؤدي إلى تعليم أفضل مما يحسن نوعية الأفراد بلدرجة تؤهلهم لتحقيق أهداف المجتمع .

وحتى لا يكون هناك خلط أو حيرة فنحن نتحدث أحياناً عن تغيير تربوي وأحياناً عن إصلاح المدرسة ، فالإصلاح يعني زيادة حسنة في تعلم التلاميذ ،

بينما يعنى للتغير ما يحدث للبنية والهيكل المدرسى من تعديلات، وتشمل أيضاً ما يتم داخل المؤسسة التعليمية (المدرسة) مؤثراً على المتعلمين . ومن البديهي إذن القول بأنه لا اصلاح دون تغير ، كما أن الإصلاح لا يتم بطريقة آلية عند ما يبدأ التغير يحدث . ويمكن القول أيضاً إنه يشترط لحدوث الإصلاح شمولية وتكامل التغير التربوى .

ونحن عند ما نضع معياراً للحكم على مدى ما حققه الإصلاح من نجاح ، فيجب أن يكون هذا المعيار دينامياً غير ثابت لأن التغير التربوى يجب أن يكون مستمراً لا يتوقف . ولهذا ، أيضاً ، فإن عملية فحص وتقييم الإصلاح يجب أن تكون مستمرة لأن المجتمع يتغير .

هذا ما نحن فى حاجة ماسة إليه ، إذ أن العمل المدرسى لم يصبه تحسين معقول منذ مدة طويلة - بل إن التحسن جرى .

وقد نجدون شيئاً من التفاؤل فنأمل - وهذا حتمى علمياً - أن تكون معايير الحكم على نجاح الإصلاح مواكبة للتقدم فى المجتمع . فهو إذن - ولا يجب إلا أن يكون - معياراً متغيراً .

إصلاح التعليم فى المدرسة إذن يجب أن يعمل لتحسين نوعية المتعلم من جميع نواحيه . ولكن الأمر الواقع مثير فنياً وصل إليه من تلكؤ يكاد يكون جسماً فيما آلت إليه العملية التربوية داخل المدرسة . ولكل نقص من وما يبرره ، وقد نحترم المبررات لكن لا نستطيع إلا أن نتحداها إذا أردنا إصلاحاً وتقدماً . وتحولت العملية التربوية إلى مسخ سداه ولحمته كم من المعلومات تحشر حشراً فى عقول المتعلمين إما عن طريق مدرس الفصل المدرسى أو كتاب ملخص أو مدرس خصوصى . شجع على هذا ، بل دعا إليه نظام امتحانات عهدها من أيام الاحتلال البريطانى بما فيه من التأكيد الساحق على حفظ المعلومات واستظهارها على ظهر القلب ، وبأية صورة كانت .

وتحول معظم العمل في المدرسة اليوم ميمماً شطر هذا (الهدف) ، بل تحول مفهوم (الإصلاح) في المدرسة إلى الارتفاع بنسبة النجاح ، وبلغ الأمر ذروته عند ما حقق بعض الطلبة نجاحاً في الثانوية العامة بمجموع أكثر من مائة في المائة !!! وهذه معجزة العالم الثامنة في الربع الأخير من القرن العشرين ، بل هو اختراع مصري كاد يجعل العملية التربوية السليمة ترفع الراية البيضاء . وتمر جيوش التلاميذ تحيي هذه الراية التي احمرت خجلاً ليدخلوا الجامعة والمعاهد العليا وكانت في رءوسهم عند ما دخلوا امتحان الثانوية العامة كميات من المعلومات ضاع بعضها أمام (شبابيك) مكاتب التنسيق . وتستكمل المسرحية مهزلتها فالشكوى مستمرة من أساتذة الجامعة لهذا المستوى المتدنى ، وقد لجأ بعضهم إلى هذا المد المادي العائد من الدروس الخصوصية وتحولت بعض المناطق الجامعية إلى مدارس ثانوية كبرت أعمار تلاميذها وحمل أعضاء هيئات التدريس فيها الماجستير والدكتوراه .

إذن ما العمل ؟

المفتاح في تصورنا يكمن في عملية إصلاح المدرسة وهو مختلف ولكنه مرتبط بالتغير التربوي كما سبقت الإشارة . والتغير التربوي يشتمل ، وما زلنا بصدد عملية الإصلاح المدرسي ، على مجموعة جوانب تنسم - وهذا تكرر غير محل - بالشمولية والتكامل .

ويجدر بنا قبل أن نتناول نطاقات الإصلاح المدرسي أن نضع أسساً هي ركيزة قوية لهذه العملية الإصلاحية :

- إن الإصلاح في أي نطاق أو جانب لا يعنى مطلقاً أن العمل في المدرسة قد أصابه النجاح ، بل هو واحد من سبل شتى تعمل متعارضة في تكامل لكي تتم عمية الإصلاح . ونحن هنا نؤكد أيضاً على أن عملية الرتق الجزئي قد تظهر وكأنها ثمرة شعاع إصلاحى وضح . وخطوة جزئية نحو الإصلاح قيمة بأن تثير عند البعض الكثير من

الفرح والاستبشار ، ثم تخف الحدة ويقف الأمر عند هذا الحد وهنا تكمن الخطورة .

- لكن لا بد من بداية ، حتى ولو كانت على مستوى الجزء ، أى تبدأ من نطاق معين سرعان ما ينتشر مؤثراً على بقية النطاقات . وهنا يظهر التساؤل : من أين تبدأ ؟ هل يكون المعلم هو نقطة البداية ؟ ماذا يستطيع أن يفعل وبقية جوانب العملية التربوية داخل المدرسة تئن ضعفاً وهزاً ؟ هل تبدأ بإصلاح وتطوير المناهج الدراسية ، وهو مدخل بناء ما فى ذلك شك ؟ ولكن هل أعد المعلمون وأعد المبنى المدرسى . . . الخ لتقبل هذا التطوير ؟

وإذا اقترحنا أن تكون البداية على خط أفقى يتضمن كل النطاقات

- وهو أمر منطقي معقول - فكيف يتم هذا أمر يحتاج للدراسة يتضافر فيها كل العاملين أو المسؤولين عن هذه الجوانب المتعددة .

- وتتساءل أيضاً عن العلاقة بين التغيير التربوى أو التغيرات التربوية اللازمة للإصلاح المدرسى . هى علاقة رصينة قوية ، فالإصلاح يتم بناء على التغيير أو التغيرات التربوية ، وهذه الأخيرة وطيدة الصلة بالسياسة العامة .

- ثم هناك التساؤل الرابع أو القضية الرابعة ومضمونها مدى كفاية التغيير لحدوث الإصلاح ، أو بمعنى آخر ما يدرينا أنه لو حدثت التغيرات التربوية فهل هى كافية وحدها لحدوث الإصلاح فى المدارس وبالتالي إلى تحسين نوعية التعليم مما يؤثر على تكوين مواطنين أفضل من جميع النواحي . إذ أن هناك عوامل أخرى - أو قل أوساطاً أخرى - ذات فعالية قوية وواضحة على الأفراد المتعلمين ، إلى الدرجة التى يمكن أن تجعلنا نصرح بأن مؤثرات من المجتمع أو من البيت قد تقلل من نتائج عملية الإصلاح المدرسى . والشواهد أماننا لا نشك فيها .

محاولة تشريح الركائز

• المناهج والمقررات الدراسية هي واحدة من هذه الركائز. والمنهج أشمل وأعم من المقررات فهو يتضمن جميع المناشط المنظمة التي تقدم إلى المتعلمين ، ومنها ما يدور داخل الفصل ومنها ما يحدث خارجه ، ومنها المقررات الدراسية . والمقررات كثيرة ، ولا ننكر أن بعضها قد تطور ولكن هذا التطور قد شُمل :

- استبعاد جزء من المقرر
- إضافة جزء إلى المقرر
- وافقد إلى النظرة الشاملة المتكاملة من حيث
- التكامل في المادة على مستوى التسلسل والنمو خلال سنوات الدراسة التي تدرس فيها
- ارتباطها بغيرها من المقررات الدراسية
- ارتباطها بالمناشط الدراسية
- ويعتمى مع هذا الحديث متطلبات أتناولها فيما بعد ترتبط بأمر هامة مثل
- في حالة تغيير مقرر ما يجب أن تكون هناك دراسات تجديدية للموجهين والمدرسين
- تجارب ودراسات استطلاعية في مدارس من بيئات مختلفة وتحت إشراف دقيق
- يتم خلال هذه التجارب تأليف كتب دراسية ، هي أيضاً على مستوى التجريب
- تقييم كل ما سبق واقتراح الحلول المناسبة

ومرة أخرى وأخرى ما يحدث كما هو مقترح يجب أن يحدث من نطاق خطة شاملة متكاملة . إذ أن نموذجاً من خطة دراسية بينما بقية الأجزاء تقف موقف المتفرج أمر غير مقبول لا منطقياً ولا علمياً. وقد حدث هذا في تجربة الرياضيات الحديثة ، فقد بدأت بينما ما زالت لجان تطوير تدريس العلوم وتدريس اللغة الانجليزية ، وتحسين تدريس اللغة العربية و . . . الخ ما زالت تعمل وتأمل أن تكال مساعيها الحميدة بالنجاح .

وضاع التلاميذ في غياب نظرية أو فلسفة واضحة للعملية التعليمية في المدارس ، وتاهوا . ولكنهم وجدوا طريقهم سريعاً ، فما أسهل أن يحفظ الواحد منهم إذا أراد النجاح ، ولعل أمرته أشد منه رغبة في هذا النجاح فهي مصيبة تبلغ حد الكارثة إذا لم يلتحق ابنهم أو ابنتهم بالجامعة .

وهذا مفهوم يجب أن يتغير ، وقد تكون من عوامل تغييره بدائل كثيرة وغزيرة في المقررات التي تطرح في مدارس المرحلة الثانية . وقد يكون من عوامل تغييره بدائل أخرى لبنية وهيكل التعليم في المرحلة الثانية . ثم نظرة متحررة في غير مس لمساعر الرأي العام إلى امتحان الثانوية العامة والقبول في الجامعات والمعاهد العليا .

* الإمكانات البشرية في المدرسة ، وهذه ركيزة أخرى وجانب آخر من جوانب الإصلاح المدرسي ينبثق أيضاً من التغير التربوي ويتضمن هذه الجيوش من المدرسين والموجهين والإداريين ، أطال الله أعمارهم وازدادت أعدادهم فنحن في أمس الحاجة إليهم . ولكن من هم ؟ ومن أين تخرجوا ؟ وماذا يعملون ؟

في وقت مضى ضمت المدارس مدرسين يحملون مؤهلات بلغت ٧٥ مؤهلاً مختلفاً ، بعضهم حمل البكالوريا وبعضهم راسب بكالوريا ، بعضهم حل كفاءة التعليم الأولى بأنظمة مختلفة . . . و الخ . ويمكن أن يقسم

اندرسون عامة إلى مدرسين مؤهلين تربوياً ، وإلى غير مؤهلين . والأمر
أخام ، والهام جداً ، أن يعهد إلى كثيرين من غير المختصين بتربية الأجيال
المصاعدة في وقت بلغت فيه كثافة الفصل الدراسي إلى أكثر من خمسين ظنهم
هم في أشد الحاجة إلى معلم قادر كفاء يستطيع التعامل الفعال في مدرسة
تجابه تحديات عنيفة من اجتماع بما فيه ومن فيه .

سبقنا الكثير من المجتمعات المتقدمة فصار إعداد معلم المدرسة الابتدائية
يتم تحت قبة الجامعة ، وتفكر بعض الدول العربية في هذا النهج . إذ أن طفل
اليوم غير طفل الأمس ، ولذلك فهو محتاج إلى نوعية من المعلمين تختلف
في إعدادها الأكاديمي والفني عما هو موجود الآن .

سبب هذا ، وفوق كل هذا أن المرحلة الابتدائية بالفعل ركيزة
المراحل التالية لهؤلاء الذين يريدون استكمال تعليمهم . كان عريف الكتاب
أيام زمان مضي رائعاً في عمله ، فقد علم القراءة والكتابة ومبادئ
الحساب ، وحفظ القرآن الكريم أو شطراً منه ، وكان ذلك ممتازاً في ذلك
الوقت . ولكن الظروف تغيرت والأحوال تبدلت ، فالدنيا تطورت ،
ولم يعد الكتاب مرحلة متبينة أو معدة لمرحلة أخرى . فقد جد في الأمور
كثير . ونحن لا نستطيع أن ننكر أهمية دور العريف - بل قد نحتاجه اليوم
في صورة أو أخرى - ولكن نظرة شاملة تضع مكانه تحت علامة
استفهام : نجله ونحرمه ، وقد نظوره ، وقد نلغيه . قد يعاون مدرس
المدرسة الابتدائية ، وقد يكون فاعلاً بقوة في المرحلة السابقة للمدرسة
الابتدائية ، فهو يجمع بين إمكانات تعليم متواضع ولكنه مدعم بقيم دينية
إيمانية . هذا أمر هام ووارد . ولا يجب أن ينسى ، إذ هناك فعلاً قوى
بشرية موجودة وتستطيع أن تسهم ، ونحن نريد من يستطيع أن يسهم .

وعود إلى القوى البشرية التدريسية من المدرس الابتدائية . وقد نقسمها

إلى فئتين - تمشياً مع النظام القائم - فئة مدرس الفصول أو مدرس الصفوف ، وهؤلاء الذين يدرسون للصفوف الأربعة الأولى ، مدرس الصف أو مدرس الفصل هو الذى يدرس جميع المواد الدراسية باستثناء مواد مثل التربية الفنية والرياضية . إن الغالبية العظمى من هؤلاء من خريجي دور المعلمين والمعلمات . والجسد منهم تراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والعشرين . وهذا عمر غض لين هين ، نفسانيا واجتماعيا تشغلهم أمور فى الدنيا وفى المستقبل أكثر - فى تصورنا - مما تشغلهم أمور التربية الحقيقية الفاعلة . هم شباب يتطلعون ، خبراتهم الدنيوية محدودة ، بل إن نظرهم إلى مستقبلهم المتأثر بحضورهم تجعل فعاليتهم محدودة إزاء أطفال ليسوا قطعا عمياء ، ولكن لهم عقولاً تتفجر بالتساؤلات .

إن علم هؤلاء الشبان ضئيل أمام هذا التفجر المعرفى وتحديات وسائل الإعلام ، وخبراتهم الحياتية متواضعة فى خجل ، وما تعلموه عن سيكولوجية الأطفال شذرات هينة مع طرائق تدريس قد تصلح لربع قرن مضى ، مع إمكانات مدرسية فيها من الهزال الشيء الكثير ، ثم فوق كل هذا راتب متواضع .

بالله ، أية قوة ترفع هؤلاء إلى المستوى المطلوب ، وهو مدرس (بل مدرسة) قادرة علمياً ومهنيًا وعاطفياً على التعامل مع أطفال الخمس الأخير من القرن العشرين . هم أطفال لديهم محصول لغوى ، فى بعض كلماته ، لم يعرفه مدرسو هؤلاء المدرسين منذ عشرين سنة الماضية .

اختلفت مدرسة التعليم الابتدائى اليوم - بالفعل - عن مدرسة التعليم الابتدائى منذ عشر أو عشرين سنة مضت ، ولكن المناهج تطورت تطورا لا يواكب هذه الفترة الزمنية . ومع ذلك فإعداد المدرس (وخاصة مهنيًا) كاد أن يظل كما كان . الدليل الحاسم على هذا ما يسمى بالتربية العملية .

وأمرها يغيظ في وقت قيل فيه إن ما يدرس في ست سنوات يمكن اختزاله
لكي يدرس في أربع سنوات وبنفس الكفاءة . يبقى إذن المدرس الذي
يستطيع هذا !!

إعطونا مدرساً (مدرسة) قادراً على العطاء حتى ، نعظكم تلميذاً
لديه :

- قدرة على المواطنة الصحيحة إذا انتهى تعليمه عند حصد المدرسة
الابتدائية

- أو قدرة علمية على متابعة التعليم في المراحل التالية

نقول في عزم إنه من السهل أن تعلم في المرحلة الثانية (اعدادى -
أو متوسط - وثانوى) ، ومن الصعب أن تتعامل مع العقول البليغة
في مرحلة التعليم الأولى .

نقول إن التقدم في المجتمع - وركيزته التربية - يبدأ من هذه المراحل
المتقدمة في التعليم . ولكي يتقدم التعليم في هذه المراحل المبكرة لا بد ،
بل لا بد ، من إمداد هذه المراحل بالقوى البشرية القادرة في كفاءة واقتدار
على التدريس في هذه المرحلة وتربية أبنائها .

ثم تنتقل إلى المرحلة الثانية - اعدادى (أو متوسط) و ثانوى .

هذه قضية قد تقل حلتها إذا اعتنينا فعلاً بالعملين بالمرحلة السابقة .
فإذا جاءني تلميذ متمكن قادر ، فالأمر حين ، أما إذا انفتحت الأبواب
- وهي مفتوحة الآن - فالأمر جد عسير .

ويكاد يكون الأمر متكرراً ، ففي المدارس الاعدادية والثانوية أعداد
غير قليلة أرسلتها القوى العاملة للتدريس . وهذه في حد ذاتها خطر تربوي
لا يمكن تجاهله . فن لا عمل له ، فالتدريس مهنة له . هذا امتحان

لعملية التربية . نحن نسلم بأن الالحاح دعا وزارة التعليم إلى تعيين جيوش
جراحة في سلك التدريس لسد نقص فرضته ظروف اقتصادية وعسكرية
لا تخفى على أحد . ونحن نسلم بأن كليات التربية لم تستطع إلى اليوم أن
تسد أو تشبع جوع وزارة التعليم إلى الدرجة التي عينت مدرسين يدرسون
في غير تخصصاتهم ، كخريجي أقسام التاريخ والفلسفة لتدريس اللغة
الانجليزية . وكانت النتيجة احباطات عند المدرسين وفقر مدقع عند
المتعلمين .

لا نستطيع أن نشكر أن المتحقيين في كليات التربية دخلوا أقساماً
لها أكثر من رونق

- الرياضيات والعلوم واللغة الانجليزية . . . الخ لما وراءها من دروس

خصوصية وإثراء مادي

- تخصصات في مواد لها الزهو الأكاديمي كالفلسفة

- تخصصات هرف عنها السهولة كالتاريخ والجغرافية (هذا في نظر

الطلاب) . . . الخ

كما لا نستطيع أن نتغاضى عن الحقيقة الواضحة في أن معظم المتحقيين
في كليات التربية - والكلام هنا لمكاتب التنسيق - هم أصحاب المجموعات
المتواضعة . وهذه أيضاً مصيبة ، أن يعهد إلى تربية أجيال المستقبل إلى
ذوى التحصيل الدراسي المتواضع . (نحن لا نشكر أن من بين أصحاب
الجامع العالية في الثانوية العامة من لا يحققون بالضرورة تفوقاً في كليات
الطب والهندسة والصيدلة . . . الخ) :

وعلى أحسن الظروف فإن نسبة مثوية مقبولة من المدرسين في المرحلة
الثانية (اعدادى وثانوى) نالوا قسطاً من الإعداد المهني ، ولكن قدرتهم
الأكاديمية - من حيث المادة التي يقومون بتدريسها - متواضعة . ولذلك

(م ١٠ - طفل غاضب)

انتشرت واستشرت الدروس الخصوصية إلى الدرجة التي يفكر الآن تقنينها ، بل وإلى خضوعها لنظام الضرائب المعمول به في الدولة ، فيعفى المدرس من ال ١.٥٠٠ جنيه الأولى ثم يدفع بعد ذلك ١١ ٪ من دخل الدروس الخصوصية .

هذا هو تكافؤ الفرص وهذه هي ديمقراطية التعليم !!!

المعنى الصريح الواضح لهذا أن التعليم النظامي الديمقراطي تحول إلى تعليم رستوقراطي خاص تحت رعاية مصلحة الضرائب !!!

إذ نعبر عن رأينا من منطلق أننا مجتمع اشتركي ديمقراطي نقترح فيما يختص بالمدرسين العاملين في المدارس الحكومية الآتي :

إعادة النظر جذرياً في إعدادهم من حيث ضرورة تخرجهم من كليات تربوية وهنا قد نقترح الآتي :

- وحتى ست أو ثمان سنوات قادمة يحذف القبول بالكليات والمعاهد التي لا تعد معلمين (كالتب والهندسة والصيدلة والزراعة والتجارة والآداب . . . الخ) إلى القدر الذي تحتاجه خطة التنمية دون أية اعتبارات أخرى

- يدخل بقية الحاصلين على الثانوية العامة أو الثانوية الفنية كليات التربية وما تناظرها من كليات أخرى تعد خريجها للعمل في التدريس

- تمتد كليات التربية (وعددها فوق العشرين كلية مع الكليات والمعاهد التي تعد لمهنة التدريس بالقوى البشرية الموجودة في الكليات والمعاهد التي صار فيها تحديد دقيق لمن يلتحقون بها .

- ترصد حوافز مادية مجزية (قد تصل إلى مرتب المدرس في أول تعيينه) للطلبة المتحقين ليكونوا مدرسين .

— إعادة النظر جذرياً في كادر المعلمين من حيث بداية التعيين والعلاوات والترقيات وغيرها من الحوافز .

إن المجتمع الذي يتهاون في تربية عقول أبنائه إنما هو مجتمع ينتحر عقلياً وثقافياً وخلقياً واجتماعياً . . . هو مجتمع يتخلف حضارياً ، ولا يجد له مكاناً تحت الشمس ، مكاناً راسخاً ينطلق منه مع المنطلقين . نحن نريد أن ننطلق :

— أما عن المدرسين الحاليين فمن المحتم أن يمروا في دورات تدريبية ذات طابع أكثر إثماراً . وقد تم في بعض كليات التربية ذات الإمكانيات البشرية الكافية ، وقد تكون هناك مراكز للتدريب ، واحد في أسبوط يستعين بهيئات التدريس بكليات التربية في الوجه القبلي ، وواحد في القاهرة ، ويستعين بكليات التربية واعداد المعلمين بالقاهرة ، وواحد في طنطا أو الزقازيق ، وواحد بالأسكندرية بنفس طريقة الاستعانة . وعندما نقول تدريباً أكثر اثماراً فنقصد نظرة حديثة متطورة للتدريب . وقد تعقد الدورات التدريبية صيفاً ، وهذا أفضل ، وقد يعقد بعضها في المصايف وقد تعتمد على الورش الدراسية ويمتد التدريب فيشمل النظار والموجهين ، وقد تتاح الفرص لبعضهم لزيارات ودراسات خارج جمهورية مصر العربية ، وهذا أمر شديد الأهمية ، فيذهب المئات فوراً إلى الخارج بالاستعانة بالهيئات والمؤسسات الدولية وقد من الله علينا بعصر سلام وانفتاح وتقبل من الغير للإسهام في تقدم مجتمعا .

يا أخى . . .

وقد يستمر الحديث في اتصال ويطول ، ولكنه حديث عن الوضع الراهن في المدارس ، وهو وضع في تصورنا في حاجة إلى تغيير وتطوير ، وهو حديث طويل ولكن لناخذ على سبيل المثال موقف المدرسين في المدارس الصناعية وهم يندرجون تحت :

- مدرسو المواد الأكاديمية

- مدرسو المواد المهنية

- مدرسو المواد الثقافية

ولسكل من هذه الفئات مواصفات معينة . وواقع الأمر أن شرطاً أساسياً أو واحداً أساسياً من هذه المواصفات مفقود إذ أن كل فئة تعمل في وادٍ ولا صلة بينها وبين الفئتين الأخرتين ، والنتيجة تفتت وتفكك .

• المناخ التعليمي داخل المدرسة وهذا صلب الركيزة الثالثة

المفروض في مجتمع الخمس الأخير من القرن العشرين أن يجد من المدرسة مواكبة إيجابية تساند تطوره وتعينه على مزيد من التطور . ولكن الذى يحدث في المدرسة المصرية أمر غريب . مدارس الأمس في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات كانت أفضل مناخاً ، وبالتالي أكثر إثماراً .

لقد تعب هذا المشجب الذى ناخ بما نعلق عليه من سلياتنا ، فكل شئ تقريباً نرجعه إلى الانفجار السكاني في مصر ، وهذا سبب يراه البعض وجيهاً ويستريحون . هؤلاء الذين تعدوا اليوم سنى الحامسة والأربعين لعلهم يذكرون مدارس الأمس ، ولم يكن تميزها عن مدارس اليوم أن كثافة الفصول أقل ، ولكن كان المناخ التعليمي أفضل .

نعم كانت هناك اضطرابات في كثير من المدارس ولكنها كانت ضد مستعمر طاغ ، ربما جمع هذا الطلبة نحو تحقيق هدف . ولكن كانت هناك طاعة لإدارة المدرسة وللمدرسين واحترام موجود . اليوم صار إعجاب بتلاميذ (مدرسة المشاغبين) وصار إعجاب للآبناء عند ما يتحدثون الأب والمدرس ، بل صار إعجاب بهؤلاء التلاميذ الجهلاء أو الأطفال القادرين على التخطيط وحك المؤامرات في بعض ما تقدمه وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة

مناخ تعليمي غير نقي تماماً ، فعمل المدرسة حاصل لتحقيق أهداف ضبابية ، والصلات الاجتماعية داخل المدرسة فيها الكثير من العواصف الرعدية ، والعاطفة بين المتعلمين والمعلمين باردة صيفاً وشتاء ، لا لأن كثافة الفصول إزدادت عددياً وكياً ، ولكن لأن روح الجماعة أغرقتها سيول من اللامبالاة سببها غيبة من القيم الإيمانية وراء سحب كثيفة .

والشكوى مرة بل هي تزداد مرارة . وقد نتلمس العذر لوزارة التعليم فيما لم تفعله ، وكان واجباً عليها أن تمنعه . ولكن اقتصاد الحرب كسّف المناخ التعليمي في المدارس غالباً كما يقولون .

ولا نريد أن نقبل هذا الكلام فكان من الممكن الا تكون المدارس الصناعية والزراعية والتجارية عالة على الحكومة ، بل كان من الممكن أن تنتج وتكفي نفسها بنفسها بل ويفيض عن حاجتها . كان من الممكن أن ينخفض عدد الطلبة في المدارس الاعدادية والثانوية بصورتها الراهنة ومزيد من تلاميذ المدارس المهنية . هذا يدفعنا إلى الركيزة الرابعة .

• التمويل

وقد يكون الحديث عن التمويل حديثاً يوصد أبواب المناقشة . ولكن عند ما نتقدم باقتراحات بصدد تطوير وتحسين العمل في المدرسة فإننا نؤكد مراراً وتكراراً أن البشر هم ثروة المجتمع ، وهي الثروة النامية باستمرار إذا أحسن تربيتها . هي القادرة على حسن استخدام القليل فيما يعود على الجميع بالنفع والكثير .

ليس لدى اليابان ثروات بترولية أو معدنية إلا فيما ندر ، ومع ذلك فإن ابن الياباني يهز عملة أغنى دولة على الأرض . القوة تكمن في البشر ، والبرية السليمة هي التي تكون هذه القوة .

أمل في عصر سلام تنال فيه التربية المزيد والمزيد من التمويل إذ أن مشروعات بناء العقل المصرى ، بناء البشر على أرض مصر يجب أن تنال ما تناله مشروعات بناء السد العالى أو الكبارى العلوية . إن نقصاً في حديد التسليح أو الأسمنت ربما يؤدي بمشروع ما إلى الإنهيار . ونحن نريد لعقول وأجسام وإيمان أجيالنا الصاعدة أن تنمو في قوة وفي عزة حتى تعطى للوطن عطاء عظيماً .

ليس هناك تناقض فيما نقوله الآن وما قلناه في (ثالثاً) عن المناخ في المدرسة ، ولكنه يعززه ويقويه مؤدياً إلى سماء صافية ونسائم تربوية تحملنا إلى التقدم .

وعن التمويل نطرح تساؤلات

— أين دور المؤسسات والشركات الخاصة من تمويل لمشروعات تعليمية تعود عليها وعلى المجتمع بخير ؟

— هل تتاح للطلاب الفاشل بالاستمرار في التعليم المجانى مع رسوبه وتكرار هذا الرسوب وخاصة في التعليم العالى ؟

— مع إيماننا بالاشتراكية والديموقراطية فهل يعنى القادر مالياً — وعن سعة — من دفع مصروفات مثله مثل غير القادر ؟

— هل مع انتشار الدروس الخصوصية بأجورها الخيالية يتحقق مبدأ تكافؤ الفرص وديموقراطية التعليم في ظل نظام اشتراكى ديموقراطى ؟

و . . . الخ

عالم النماذج الحيثية

أعود إلى بعض ما قلته الآن في شيء من التباور التصوري ، فالأمر السليم يحتاج إلى دراسات علمية جادة ونحن في سبيل وضع بدائل تعتمد على أمرين

– الأهمية الكبرى للتقنيات الحديثة في التعليم

– الصلة الوثيقة بين سياسة الدولة والتعليم

وبادئ ذي بدء فنحن لا نحاول استيراد أنظمة أو أفكار تعليمية ونزرعها زرعاً كما هي في أرضنا ، ولكن لا بد لنا من التعرف على ما يجري في الخارج حتى نستفيد بما يمكن أن يفيدنا في ظل من إمكاناتنا (بشرية ومادية) وتراثنا وبالقيم في الدرجة الأولى .

كما كان للاصلاح المدرسي اشتراطات ومواصفات معينة ، فكذلك الأمر فيما يتعلق بالتغير التربوي . إذ هناك اشتراطات مسبقة حتى يمكن للتغير التربوي أن يحدث ، ثم هناك – بالضرورة – علاقات بين هذه الاشتراطات المسبقة و

نحن نعرف القليل عن ديناميات التغير التربوي . وهذه المعرفة مطلوبة لتكوين نظرية عن هذا التغير ، ويمكن لهذه النظرية أن توصف بدقة الظروف الضرورية والكافية لهذا التغير في العملية التربوية . فقد يكون هناك تصور ما عن تعليم مهني ما ، وهذا التصور يستدعي تغيير ما هو قائم فعلاً . ولكن لكي نضع نظرية هذا التغير فهناك ديناميات معينة يجب أن تدرس بدقة حتى تصير عملية التغير .

لكى يتبلور التصور إلى واقع لا بد من دراسات علمية موضوعية ٥
هذا أمر شديد الأهمية .

قصور هذه المعرفة عن ديناميات وعملية التغير تجعلنا حذرين في الكلام
عن تطوير للتربية ، بل إن هذا القصور هو في حد ذاته محدد لتخطيط
سياسة إصلاحية . ولكن باب التصور المستقبلي لا يوصد ، بل يظل
مفتوحاً .

والسؤال الآن هو

ما الاشتراطات المسبقة للتغير التربوي ؟

في رأى جمهرة المربين أن هناك مجموعة من المفاهيم أو المدركات تثير
بعض الاقتراحات التي يُحتم أن تكون موضع الفحص

- مفهوم يرى أن التغير التربوي عملية بحث ونمو متطور وانتشار
- مفهوم يرى أن التغير التربوي عملية نمو تنظيمي
- مفهوم يرى أن التغير التربوي عملية نمو القوى البشرية
- مفهوم يرى أن التغير التربوي عملية سياسية

• المفهوم (أو النموذج) الأول هو غالباً أكثر النماذج شيوعاً ، وينظر
إلى التغير في هذا النموذج على أنه نتاج عملية ذات أربع مراحل : عن طريق
البحث التربوي تنتج معرفة جديدة (بالطبع معرفة تربوية أو معلومات
تربوية أو نتائج . . .) . وتستخدم هذه المعرفة كأساس لظهور أو/و
نمو منتجات تربوية جديدة ، بل وإلى إجراءات وعمليات جديدة . ثم
توزع هذه المستحدثات على صانعي القرارات التربوية ثم إلى منفذها . ومن
هنا تستقطع أجزاء لتجرب في مدارس قليلة كدراسات استطلاعية ، ثم
نقيم . . . الخ

وعلى هذا ، فإن اشتراطات التغير التربوى تبعاً لهذا النموذج هى
فما يلوح :

- التوسع فى المعرفة الأساسية والتطبيقية عن التعليم وطرق التدريس
والمدارس وما يدور فيها من أنشطة وغيرها . . . الخ

- وجود جهاز مسئول عن توصيل نتائج البحوث التربوية إلى المسئولين
عن المستحدثات ، ثم عن توصيل هذه المستحدثات إلى حيث
تستخدم وبطريقة فاعلة

- التوسع فى نوعية وكَم المستحدثات التربوية الموجودة فى المدارس ،
بل والأمر الهام مدى وكيفية استخدام هذه المستحدثات ، وهى
لا تعنى فقط أجهزة وأدوات . . .

ونحن لا نقال مطلقاً من أهمية البحوث التربوية الجارية والسابقة ولا نقال
من أهمية ما تقوم به الأجهزة الفنية بوزارة التعليم ، ولا بما تسهم به المجالس
القومية وغيرها من المؤسسات المهمة بشئون التربية والتعليم ، ولكن عمليات
نشر الجديد والتوعية به محدودة الفاعلية . بل إن الرسائل العلمية التى أجازتها
الجامعات قد لا يرجع إليها إلا باحث يستعين بشئء منها . ولكن التوصيات
لم تجد طريقها إلى المسئولين عن تطوير التعليم وتحسينه .

لهذا ، فنحن نتساءل هل هذه الاشتراطات الثلاثة ضرورية وكافية
لإحداث تغير تربوى يودى إلى إصلاح مدرسى ؟ هى اشتراطات ضرورية
ولكنها غير كافية ، وذلك لأن المعلومات التى لدينا عن النطاقات التى ورد
ذكرها سابقاً محدودة للغاية فى قيمتها العلمية ، إذ أن بعضها لم يساير التطور
الحادث عالمياً ، ربما تكون الإحصاءات حديثة جداً ، ولكن هل هى
صحيحة جداً ؟ بل إن معلوماتنا عن المناخ المدرسى تكاد تكون قليلة جداً .
وما يثير عجباً أن المدارس فى مرحلة ما تكاد تنساوى كلها فيما تقدمه وتلممه

وفيما ينتظر من تلاميذها . ومثار العجب هنا أن بعض المدارس كثيرة الفصول أو الصفوف ، وبعضها قليلها . مدارس في المدن الكبيرة ومدارس في مدن صغيرة ومدارس في قرى . تلاميذ يذهبون صباحاً ، وآخر بعد الظهر . مدرسة بها فناء ومدرسة لا مكان فيها لقدم آخر . مدارس . . . ومدارس في أشكال وألوان متباينة ، فكيف يكون الإصلاح ؟

في مجتمع اشتراكي ديموقراطي من المفروض أن ينال كل التلاميذ خدمات تعليمية متساوية ، والواقع يقول غير ذلك - وهذا واقع للأسف الشديد : ففي مدينة القاهرة - على سبيل المثال - سنجد المدارس في مرحلة تعليمية واحدة تعمل على مستويات تربوية مختلفة .

ليس هذا تحليقاً في آفاق عالية أو كلاماً من أبراج عاجية ، ولكنه واقع محسوس ملموس ، وهو مؤلم ☹

وحق إذا اتبعنا هذا النموذج القائم على البحث ثم النمو والتطور ثم الانتشار ، فإن من المدرسين من يتقبل المستحدثات ومنهم من يرفضها لأنه آمن في ظل ما يعرفه ، خائف من هذا الجديد .

وهنا قد نقترح تطبيقاً فعلياً للامركزية في التعليم ، وقد صدرت للمحافظين سلطات رئيس الجمهورية كل في محافظته . وإذا طبقنا هذا النموذج في محافظة ما وهي محدودة المساحة أو عدد المدارس ، فإن فرق البحث والنمو التطويري والنشر يمكنها أن تعمل فعلاً وواقعياً مع المدرسين والموجهين والنظار . وقد يؤدي هذا إلى إشاعة شيء من الطمأنينة ، والأمان في نفوس القائمين فعلاً بعملية التربية والتعليم داخل المدارس ، ويؤدي التغيير التربوي إلى إصلاح مدرسي .

ولن يتم هذا في سنة أو سنتين . . . ، بل هو أمر يحتاج إلى سنوات

ليست كثيرة ، ولكنها أيضاً ليست قليلة ، فإن طبيعة العملية التربوية تتطلب شيئاً من التمهّل وبعداً تاماً عن التسرع . وقد عهدنا تسرعاً في إنشاء نوع من المدارس ، وذهب المسئول وجاء آخر ، واقفلت المدارس . لكي ينجح تغير تربوي ما ، فلا يجب أن يرتبط بفرد ما ، ولكنه ينبع من عمل جماعي يعمل في شمولية وتكامل بطريقة علمية موضوعية ، ويترك ليأخذ فرصته الزمنية الخاضعة للتقييم المستمر ، ثم يصدر الحكم . ليس عيباً أن نخطئ ولكن العيب أن نستمر في ارتكاب الأخطاء .

• المفهوم (أو النموذج) الثاني ، ويرى أن التغير التربوي عملية نمو تنظيمي . وعلى غير الحال في النموذج السابق فهو يحد التركيز على المدارس كمواسم تعليمية بالدرجة الأولى . ويؤكد هذا النموذج على الدور الذي تلعبه المدارس وقدراتها المؤدية إلى تحسن بناء مواجهة التغير في المجتمع ومستجيبة للتوقعات والمطالب •

ويوجه هذا النموذج الانتباه للظروف الداخلية في المدارس وإلى ما يجري

فيها من حيث

- الرغبة الصادقة في التجويد والتحسين والتابعة من الاستشعار بعدم الرضا داخلياً وخارجياً (أى من القائمين بالعمل داخل المدرسة أو مما يسمونه من الخارج) والذي يظهر واضحاً جلياً في ضعف الكفاية التعليمية

- الاستشعار برغبة قوية . وبقوة بناءة في التغيير نابعة من العاملين بالمدرسة ، وأن سياسة الدولة تدعم وتقوى هذه الرغبة

- وجود قوى (قد تمثل في نقابة المعلمين والمفروض أن تلعب دوراً هاماً ، وكذلك قوى من الحزب السياسي الحاكم يقف مع القوى الأخرى في تعضيد ومساندة وتعزيز الرغبة في التغيير

- وجود خطة للتغيير تنبع من مصادر عدة منها تقييم المدرسين لأنفسهم لما يفعلون . وبدعم هذا التقييم بآراء وتوجهات النظار والموجهين
- وجود الاعتمادات المالية التي تمكن مسيرة التغيير من الحركة .
- وفوق كل هذا إتاحة الوقت الكافي للتخطيط والتنفيذ بالاستعانة بالمستحدثات الجديدة والمتطورة في ميدان التربية .

إن نظرة ناقدة لهذا النموذج ترى فيه رغبة الاصلاح نابعة من المدرسين العاملين في المدرسة . ومثل هذه الرغبة الداخلية لا يمكن التقليل من أهميتها ، فهي صادقة أمينة داعية إلى عمل بناء ، فيها النشاط والهمة والرغبة . ولأنها لم تفرض من الخارج فالاستمرارية فيها مكفولة ، والفشل فيها غير ميثبط ولا يؤدي إلى إحباط ، إذ مع وجود الرغبة فالمحاولات مستمرة .

وقد يصير في مجتمعنا تراوج بين النموذجين السابقين ، فقد يحتاج المدرسون إلى مختصين بالبحث للتأكيد على الموضوعية والعلمية . ثم أننا لا نستطيع بين يوم وليلة أن ننقل من إدارة مركزية إلى درجة عالية من اللامركزية تتيح للمدارس كؤوسات تعليمية أن تغير وأن تطور .

ومع ذلك فلماذا لا يوضع هذا النموذج برمته وكما هو بالمفهوم المذكور سابقاً ، لماذا لا يوضع محل التجريب في عدد من المدارس المدعمة بكفاءات ممتازة ، وهم موجودون هذا مع الاهتمام بالدعم المالى اللازم ، وهذه محاولة إن فشلت فبقدر غير ضار وإن نجحت فرحبا بها ، وقد باتى للفرج التربوى عن طريقها .

فقط كل ما نرجوه إذا كان فى الامكان محاولة تنفيذ هذا النموذج فى بعض المدارس ألا يحارب خفية أو علانية بل يساند على كافة المستويات تعليمية كانت أو غير تعليمية . ثم ألا يقال عنه إنه فكر مستورد ولذلك

فهو خطر أو ضار أو . . . أو . . . الخ هو لا يخرج عن كونه محاولة تعاونية صادرة عن أشخاص مؤمنين برسالتهم (. . . كاد المعلم أن يكون رسولا) ودورهم نحو وطنهم ، وهم وإن أكلوا لحوما ودقيقا مستوردا أو ركبوا طائرات وسيارات مستوردة ، ولكنهم في إيمانهم أخرجوه من أرض وطنهم وتحت شمسها :

لنحاول إذن .

• المفهوم (أو النموذج) الثالث يرى أن التغير التربوي عملية نمو القوى البشرية . وهو يركز على اتجاهات ومعارف ومهارات المدرسين والإداريين والقائمين على العملية التربوية ككل . ويهتم هذا النموذج بهذه القوى البشرية سواء في إعدادهم قبل توليهم أعمالهم أو أثناء الخدمة لرفع كفاءتهم وقلداتهم الانتاجية . وليس انحيازاً من جانبنا القول بأن هذا النموذج باهتمامه بالقوى البشرية المستولة عن العملية التربوية يمس وتراً رئيسياً شديداً التأثير والفاعلية .

ويتطلب هذا النموذج اشتراطات معينة في القوى البشرية القائمة على العملية التربوية

- قابليتهم السيكولوجية لقبول فكرة التطوير والتغيير . هذه القابلية السيكولوجية فيها قول كثير وعمل أكثر حتى تحول عشرات الآلاف من المعلمين والموجهين والإداريين إلى حب عملهم ، وهذه قضية أخرى ليست سهلة ولها مطالب عديدة

- وجود المدرس والناظر والموجه والإداري الكفاء للقيام بعمله على الوجه المطلوب والمرغوب فيه . وهذه قضية أخرى لها أبعاد كثيرة

- وجود الأعداد الكافية وخاصة من المدرسين والمدرسات لسد

احتياجات المدارس التي تزداد أعداد فصولها ازدياداً لا يتناسب مع المعينين الجدد كل عام والذين يوزعون على المدارس وربما يدرسون في غير تخصصاتهم .

هذا ، وقد صار كلام سابق عن المعلم وإعداده وتدريبه أثناء الخدمة ، وقد ألقينا إلى بعض المؤشرات أو البدائل . والمسألة تحتاج إلى أكثر من هذا التلميح ، لأنها تحتاج إلى دراسة وافية عن الإعداد للرصين العلمي والمهني والثقافي والإيماني للمعلم . في أية مرحلة ؟ ولأى مادة ؟ ونحن هنا نتكلم وكأننا سلمنا بالمراحل التعليمية الراهنة ، وهذا موضوع جدلي وقضية أخرى .

إن المدرس الذي ينفق على إعداده القليل من المال ، سيعطى القليل في زمن يتطلب من المعلم عطاء كثيراً ، فهو لم يعد مجرد ناقل للمعرفة ، ولم تعد التربية مجرد تحصيل شذرات من المعلومات الأمر أجل وأخطر من هذا وذاك .

لهذا ، فالنظرة الإصلاحية شاملة متكاملة . مدرس ماذا ؟ ولمن ؟ ماذا يعمل وكيف يعمل ؟

• المفهوم (أو النموذج الرابع) يرى أن التغير التربوي عملية سياسية ، وقد صار اهتمام بهذا النموذج في السنوات الأخيرة ، ولكنه لم يسم في أهميته في مصر مقارناً بالنماذج الثلاثة السابقة . تكلم المرءون في وقت مضى عن دور المدرسة في التغير الاجتماعي ، وهل تجرؤ أو تستطيع المدرسة أن تغير المجتمع . وبعيداً عن الجدل الفلسفي فالمدرسة المصرية اليوم عليها مسئولية تأكيد وتعزيز الاشتراكية الديمقراطية كأصول ، طريقة للحياة على أرض مصر .

وحتى تستطيع المدرسة أن تحقق هذا فهي تطلب أنه يتحقق لها هي هذا

بالنسبة للتلاميذ وللعاملين في حقل التربية . تأخذ وتعطى ، وهى لا تستطيع العطاء بدون أن يكون معها ما تعطيه .

هى تتطلع آملة فى خدمات تعليمية أضعاف ما يعطى لها اليوم . ولن يكون هناك انضباط فى الشارع المصرى بأوامر حكومية تنفذ فى الوقت الذى تكون للسلطة موجودة فى الشارع أو دار للسبها أو ملعب الكرة ، ولكن إذا غابت عاد التسبب وعادت الفوضى إلى الشارع المصرى .

المسألة أجل من تنفيذ أمر خوفاً من سلطة أو عقاب فإذا زال المسبب للسلوك الطيب طفا إلى السطح القبيح من العمل . المسألة أن يقتنع الناس بأن الانضباط والنظام فى مصلحة الجميع ونحير الجميع حتى يكون خير فوق الشر ويصير انضباط بدلا من الفوضى .

ويتم الاقتناع على خطوات تبدأ فى عقل الفرد ، والمدرسة واحدة من أهم الأوساط المسئولة عن مخاطبة العقل حتى يفهم ويفهم وتتكون قناعة بأن هذا أفضل من ذلك . وإذا كان الدين المعاملة . فالسياسة تعنى تنظيم العلاقة بين السلطة الحاكمة وبين أفراد الشعب . وبالقناعة الذكية يعرف الأفراد أنهم هم الذين يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وأن خيرهم فى تعاونهم وانضباطهم واحترامهم للقانون وصدقهم فى عملهم وحرصهم على صيانة مكاسبهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ووقفت المدرسة حائرة ماذا تفعل ويأتى إليها الأطفال وقد حوت لغتهم ألفاظاً وتعبيرات مبتذلة . كتب مفكرون مسلمون عن سياسة الرجل نفسه ، وسياسة الرجل دخله وخرجه ، وسياسة الرجل أهله ، وسياسة الرجل ولده ، وسياسة الرجل خدمه .

ويقول ابن سينا إن أول ما ينبغى أن يبدأ الإنسان من أصناف السياسة سياسة نفسه إذ كانت أقرب الأشياء إليه ، وأكرمها عليه ، وأولاها

بعنايته ، لأنه متى أحسن سياستها لم يعبأ بما فوقها من سياسات
وليعلم أن له عقلاً هو السائس ونفساً أمارة كثيرة المعائب ومن
حق الولد على والده إحسان تسميته . . . وينبغي لقيّم الصبي أن يجنبه مقابح
الأفعال ، وينكب عنه معائب العادات بالترغيب ، والترهيب ، والإيناس ،
والإيجاش ، وبالإعراض ، وبالإقبال

عندما نأخذ من الغرب فهذا حق كبير لنا ، وواجب كبير علينا أن
نلتفت إلى الوراء منقبين وباحثين في تراثنا وسوف نجد عالماً مثيراً من
النماذج والركائز .